

وتغلبهم عليه، ففعل ذلك لأنه كان ببلاد قريبة إلى حلب لايمكنهم التعرض إليه.

وفي هذه السنة كثر عبث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الملك الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب، فخرج إليهم عسكر حلب مع الملك المعظم تورانشاه ابن صلاح الدين، ووقع بينهم القتال فانهمز الحليون هزيمة قبيحة، وقتل منهم خلق كثير منهم الملك الصالح ابن الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين، وأسر مقدم الجيش الملك المعظم المذكور، واستولى الخوارزميون على أثقال الحليين وأسروا منهم عدة كثيرة، ثم كانوا يقتلون بعضهم ليشتري غيرهم نفسه منهم بماله، فأخذوا بذلك شيئاً كثيراً، ثم نزل الخوارزمية بعد ذلك على حيلان، وكثر عيشتهم وفسادهم ونهبهم في بلاد حلب، وجفل أهل الحواضر والبلاد ودخلوا مدينة حلب، واستعد أهلها للحصار، وارتكب الخوارزمية من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبه التتر، ثم سارت الخوارزمية إلى منبج وهجموها بالسيف يوم الخميس لتسع بقين من ربيع الأول من هذه السنة، وفعلوا من القتل والنهب مثل ما تقدم ذكره، ثم رجعوا إلى بلادهم وهي حران وماعها، بعد أن أخرجوا بلد حلب.

ذكر عود الخوارزمية إلى بلد حلب وغيرها

ثم إن الخوارزمية رحلوا من حران، وقطعوا الفرات من الرقة، ووصلوا إلى الجبول، ثم إلى تل اعزاز، ثم سرمين، ثم إلى المعرة وهم ينهبون ما يجدونه، فإن الناس جفلوا من بين أيديهم، وكان قد وصل الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح اسماعيل المستولي على دمشق نجدة للحليين، فاجتمع الحليون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية، واستمرت الخوارزمية على ما هم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر ونزل عسكر حلب على تل

السلطان، ثم رحلت الخوارزمية إلى جهة حماة ولم يتعرضوا إلى نهب لانتباء صاحبها الملك المظفر إلى الملك الصالح أيوب، ثم سارت الخوارزمية إلى سلمية، ثم إلى الرصافة طالين الرقة، وسار عسكر حلب من تل السلطان إليهم ولحقهم العرب فأرمت الخوارزمية ما كان معهم من المكاسب وسيبوا الأسرى، ووصلت الخوارزمية إلى الفرات في أواخر شعبان في هذه السنة، ولحقهم عسكر حلب وصاحب حمص إبراهيم قاطع صفين، فعمل لهم الخوارزمية ستائر، ووقع القتال بينهم إلى الليل فقطع الخوارزمية الفرات وساروا إلى حران فسار عسكر حلب إلى البيرة وقطعوا الفرات منها وقصدوا الخوارزمية، واتقوا قريب الرها لتسع بقين من رمضان هذه السنة، فولى الخوارزمية منهزمين، وركب صاحب حمص وعسكر حلب أقفيتهم يقتلون ويأسرون إلى أن حال الليل بينهم، ثم سار عسكر حلب إلى حران فاستولوا عليها، وهربت الخوارزمية إلى بلد عانة، وبادر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى نصيبين ودارا وكانت للخوارزمية فاستولى عليها وخلص من كان بها من الأسرى، وكان منهم الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين أسيرا في بلدة دارا من حين أسروه في كسرة الحلبيين، فحمله بدر الدين لؤلؤ إلى الموصل، وقدم له ثيابا وتحفا وبعث به إلى عسكر حلب، واستولى عسكر حلب على الرقة، والرها، وسروج، ورأس عين، ومامع ذلك، واستولى صاحب حمص المنصور إبراهيم على بلد الخابور، ثم سار عسكر حلب ووصل إليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم ابن الملك الصالح أيوب بآمد وتسلموها منه، وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم، ولم يزل ذلك بيده حتى توفي أبوه الملك الصالح أيوب بمصر، وسار إليها المعظم المذكور على ما سنذكره إن شاء الله تعالى، وبقي ولد المعظم، وهو الملك الموحد عبد الله بن المعظم تورانشاه بن الصالح أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مالكا لحصن كيفا إلى أيام التتر وطالت مدته بها.

ذكر ماكان من الملك الجواد يونس

في هذه السنة كان هلاك الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، وصورة ماجرى له أنه كان قد استولى بعد ملك دمشق على سنجار، وعانة، فباع عانة من الخليفة المستنصر ببال تسلمه منه، وسار لؤلؤ صاحب الموصل وحاصر سنجار، ويونس المذكور غائب عنها واستولى عليها، ولم يبق بيد يونس من البلاد شيء، فسار على البرية إلى غزة، وأرسل إلى الملك الصالح أيوب صاحب مصر يسأله في المصير إليه، فلم يجبه إلى ذلك، فسار يونس حينئذ ودخل إلى عكا وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح اسماعيل صاحب دمشق حينئذ وبذل مالا للفرنج وتسلم الملك الجواد يونس المذكور من الفرنج واعتقله، ثم خنقه.

وفي هذه السنة ولى الملك الصالح أيوب الشيخ عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام القضاء بمصر والوجه القبلي، وكان عز الدين المذكور بدمشق، فلما قوي خوف الصالح اسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر، سلم الصالح اسماعيل: صفد، والشقيف، إلى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن أخيه الصالح أيوب، فعظم ذلك على المسلمين وأكثر الشيخ عز الدين بن عبد السلام التشنيع على الصالح اسماعيل بسبب ذلك، وكذلك جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب، ثم خافا من الصالح اسماعيل، فسار عز الدين بن عبد السلام إلى مصر وتولى بها القضاء كرها، وسار جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب إلى الكرك، وأقام عند الملك الناصر داود صاحب الكرك ونظم له مقدمته الكافية في النحو، ثم بعد ذلك سافر ابن الحاجب إلى الديار المصرية.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وستمائة

والصالح اسماعيل صاحب دمشق، والمنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وصاحبة حلب متفقون على عداوة الملك الصالح أيوب صاحب مصر، ولم يوافقهم صاحب حماة على ذلك، واخلص في الانتفاء إلى صاحب مصر.

وفي هذه السنة اتفقت الخوارزمية مع الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين ابن الملك العادل، وفيها في شعبان أصاب جدي الملك المظفر صاحب حماة الفالوج وهو جالس بين أصحابه في قلعة حماة، وبقي أياما لا يتكلم ولا يتحرك، وكان ذلك في أواخر فصل الشتاء، وأرجف الناس بموته، وقام بتدبير المملكة مملوكه وأستاذ داره سيف الدين طغريل، ثم خف مرض الملك المظفر وفتح عينيه وصار يتكلم باللفظة واللفظتين لا يكاد يفهم، وكان العاطب الجانب الأيمن منه، وبعث إليه الصالح صاحب مصر طيبيا حاذقا نصرانيا يقال له النفيس ابن طليب، فلم تنجح فيه المداواة واستمر على ذلك إلى أن توفي بعد سنتين وكسر على ما سئذرة إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة في ذي الحجة توفي الملك الحافظ نور الدين أرسلان ابن الملك العادل بن أيوب بأعزاز، وهي التي تعوضها عن قلعة جعبر، ونقل إلى حلب فدفن في الفردوس، وتسلم نواب الملك الناصر يوسف صاحب حلب قلعة أعزاز وأعمالها.....

ثم دخلت سنة أربعين وستمائة

وفي هذه السنة كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين، وبين عسكر حلب، ومعهم المنصور ابراهيم صاحب

حمص مصاف قريب الخابور عند المجدل، في يوم الخميس لثلاث بقين من صفر هذه السنة، فولى المظفر غازي والخورزمية منهزمين أقبح هزيمة، ونهب منهم عسكر حلب شيئاً كثيراً، ونهبت وطاقت الخوارزمية ونساؤهم أيضاً، ونزل الملك المنصور ابراهيم في خيمة الملك المظفر غازي، واحتوى على خزائنه ووطاقه، ووصل عسكر حلب وصاحب حمص إلى حلب في مستهل جمادى الأولى، مؤيدين منصورين.

ذكر وفاة الملكة ضيفة خاتون صاحبة حلب وهي والدة الملك العزيز

وفي هذه السنة في ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى، توفيت ضيفة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان مرضها قرحة في مرق البطن وحمى، ودفنت بقلعة حلب، وكان مولدها سنة إحدى أو اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة حلب حين كانت حلب لأبيها الملك العادل، قبل أن ينتزعها منه أخوه السلطان صلاح الدين ويعطيها ابنه الظاهر غازي، فاتفق مولدها ووفاتها بقلعة حلب، ولما ولدت كان عند أبيها الملك العادل ضيف فساها ضيفة، فكانت مدة عمرها نحو تسع وخمسين سنة، وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد تزوج قبل ضيفة خاتون بأختها غازية وتوفيت، فلما توفيت غازية تزوج بأختها ضيفة خاتون المذكورة، وكانت ضيفة خاتون قد ملكت حلب بعد وفاة ابنها الملك العزيز، وتصرفت في الملك تصرف السلاطين وقامت بالملك أحسن قيام، وكانت مدة ملكها نحو ست سنين، ولما توفيت كان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز نحو ثلاث عشرة سنة، فأشهد عليه أنه بلغ، وحكم واستقل بمملكه حلب، وما هو مضاف إليها، والمرجع في الأمور إلى جمال الدين إقبال الأسود الخصي الخاتوني.

ذكر وفاة المستنصر بالله

في هذه السنة توفي المستنصر بالله أبو جعفر المنصور بن الظاهر محمد ابن الإمام الناصر أحمد، بكرة الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة إلا شهرا، وكان حسن السيرة عادلا في الرعية، وهو الذي بنى المدرسة ببغداد المسماة بالمستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي، مما يلي دار الخلافة، وجعل لها أوقافا جليلة على أنواع البر، ولما مات المستنصر اتفقت آراء أرباب الدولة مثل الدوادار والشرايبي على تقليد الخلافة ولده عبد الله ولقبوه المستعصم بالله وهو سابع ثلاثينهم، وآخرهم. وكنيته أبو أحمد بن المستنصر بالله منصور، وكان عبد الله المستعصم ضعيف الرأي، فاستبد كبراء دولته بالأمر، وحسنوا له قطع الأجناد، وجمع المال، ومدارة التتر، ففعل ذلك وقطع أكثر العساكر.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وستمائة

في هذه السنة قصدت التتر بلاد غياث الدين كيخسرو بن كيقباز بن كيخسرو بن قليج أرسلان السلجوقي، صاحب بلاد الروم، فأرسل واستنجد بالحلبيين، فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارسي، وجمع العساكر من كل جهة والتقى مع التتر، فانهزمت عساكر الروم هزيمة قبيحة، وقتل التتر وأسروا منهم خلقا كثيرا، وتحكمت التتر، واستولوا أيضا على خلاط وأمد وبلادهما، وهرب غياث الدين كيخسرو إلى بعض المعازل، ثم أرسل إلى التتر وطلب الأمان، ودخل في طاعتهم، ثم توفي غياث الدين كيخسرو المذكور بعد ذلك في سنة أربع وخمسين وستمائة، حسبما نذكره إن شاء الله تعالى، وخلف صغيرين وهما ركن الدين، وعز الدين، ثم هرب عز الدين إلى قسطنطينية، وبقي ركن الدين في الملك تحت حكم التتر، والحاكم البرواناه معين الدين سليمان، والبرواناه لقبه

وهو اسم الحاجب بالعجمي، ثم إن البرواناه قتل ركن الدين وأقام في الملك ولدا له صغيرا،

وفيها: كانت المراسلة بين الصالح أيوب صاحب مصر والصالح اسماعيل صاحب دمشق في الصلح، وأن يطلق الصالح اسماعيل المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح أيوب وحسام الدين بن أبي علي الهذباني، وكانا معتقلين عند الملك الصالح اسماعيل، فأطلق حسام الدين ابن أبي علي وجهه إلى مصر، واستمر الملك المغيث ابن الصالح أيوب في الاعتقال، واتفق الصالح اسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك، واعتضد بالفرنج، وسلموا أيضا إلى الفرنج عسقلان وطبرية، فعمر الفرنج قلعتيهما، وسلموا أيضا إليهم القدس بما فيه من المزارات.

قال القاضي جمال الدين بن واصل ومررت إذ ذاك بالقدس، متوجها إلى مصر، ورأيت القسوس وقد جعلوا على الصخرة قناني الخمر للقربان.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وستائة

ذكر المصاف الذي كان بين عسكر مصر ومعهم الخوارزمية وبين عسكر دمشق ومعهم الفرنج وصاحب حمص

في هذه السنة وصلت الخوارزمية إلى غزة باستدعاء الملك الصالح أيوب لنصرته على عمه الصالح اسماعيل، وكان مسيرهم على حارم والروج إلى أطراف بلاد دمشق، حتى وصلوا إلى غزة، ووصل إليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية مع ركن الدين بيبرس، مملوك الملك الصالح أيوب وكان من أكبر مماليكه، وهو الذي دخل معه الحبس لما حبس في الكرك، وأرسل الملك الصالح اسماعيل عسكر دمشق مع الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وسار صاحب حمص جريدة ودخل

عكا، فاستدعى الفرنج على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر، فخرجت الفرنج بالفارس والراجل، واجتمعوا أيضاً بصاحب حمص، وعسكر دمشق والكرك، ولم يحضر الناصر داود ذلك، والتقى الفريقان بظاهر غزة، فولى عسكر دمشق منهم خلقاً عظيماً، واستولى الملك الصالح أيوب صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس، ووصلت الأسرى والرؤوس إلى مصر ودقت بها البشائر عدة أيام، ثم أرسل الملك الصالح صاحب مصر باقي عسكر مصر مع معين الدين ابن الشيخ، واجتمع إليه من بالشام من عسكر مصر والخوارزمية، وساروا إلى دمشق وحاصروها وبها صاحبها الملك الصالح اسماعيل وابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وخرجت هذه السنة وهم محاصروها.

ذكر وفاة صاحب حماة

في هذه السنة توفي جدي الملك المظفر صاحب حماة تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، يوم السبت ثامن جمادى الأولى من هذه السنة أعني سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وكانت مدة مملكته لحماة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام، وكان منها مريضاً بالفالج ستين وتسعة أشهر وأياماً، وكانت وفاته وهو مفلوج بحمى حادة عرضت له وكان عمره ثلاثاً وأربعين سنة، لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وكان شهياً شجاعاً فطناً ذكياً، وكان يحب أهل الفضائل والعلوم، استخدم الشيخ علم الدين قيصر المعروف بتعاسيف، وكان مهندساً فاضلاً في العلوم الرياضية، فبنى للملك المظفر المذكور أبراجاً بحماة وطاحوناً على النهر العاصي، وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعملت هذه الكرة بحماة.

قال القاضي جمال الدين بن واصل : وساعدت الشيخ علم الدين

على عملها، وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسألنا عن مواضيع، ولما مات الملك المظفر صاحب حماه ملك بعده الملك المنصور محمد بن ملك المظفر محمود المذكور، وعمره حينئذ عشر سنين وشهر واحد وثلاثة عشر يوماً، والقائم بتدبير المملكة سيف الـديـن طغـرل مملـوك الملك المظفر، ومشاركه الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد المعروف بشيخ الشيوخ، والطواشي مرشد، والوزير بهاء الدين بن التاج، ومرجع الجميع إلى والده الملك المنصور غازية خاتون بنت الملك الكامل.

وفيها: بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب وفاة ابنه الملك المغيث فتح الدين عمر في حبس الصالح اسماعيل صاحب دمشق، فاشتد حزن الصالح أيوب عليه وحنقه على الصالح اسماعيل.

وفي هذه السنة: توفي الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب ميافارقين، واستقر بعده في ملكه ولده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن غازي.

وفيها: سير من حماة الشيخ تاج الدين أحمد بن محمد بن نصر الله المعروف بيته ببني المغيرك رسولا إلى الخليفة ببغداد، وصحبته تقدمه من السلطان الملك المنصور صاحب حماة.

وفيها: توفي القاضي شهاب الدين ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم ابن علي بن محمد الشافعي، عرف بابن أبي الدم قاضي حماة، وكان قد توجه في الرسالة إلى بغداد فمرض في المعرة، وعاد إلى حماة مريضاً فتوفي بها، وهو الذي ألف التاريخ الكبير المظفري وغيره.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة

فيها سير الصالح اسماعيل وزيره أمين الدولة الذي كان سامريا، وأسلم إلى العراق مستشفعا بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن أخيه، فلم يجب الخليفة إلى ذلك، وكان أمين الدولة غالبا على الملك الصالح اسماعيل المذكور بحيث لا يخرج عن رأيه.

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق

وفيها تسلم عسكر الملك الصالح أيوب ومقدمهم معين الدين ابن الشيخ دمشق من الصالح اسماعيل ابن الملك العادل، وكان محصورا معه بدمشق ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، فتسلم دمشق على ان يستقر بيد الملك الصالح اسماعيل بعلبك وبصرى، والسواد، ويستقر بيد صاحب حمص حمص وماهو مضاف إليها، فأجابها معين الدين ابن الشيخ إلى ذلك، ووصل إلى دمشق حسام الدين ابن أبي علي بمن كان معه من العسكر المصري، واتفق بعد تسليم دمشق أن معين الدين ابن الشيخ مرض وتوفي بها، وبقي حسام الدين بن أبي علي نائبا بدمشق للملك الصالح أيوب، ثم إن الخوارزمية خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب، فإنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا كسروا الصالح اسماعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من البلاد والاقطاعات مايرضي خاطرهم، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الملك الصالح أيوب، وصاروا مع الملك الصالح اسماعيل وانضم إليهم الناصر داود صاحب الكرك، وساروا إلى دمشق وحصروها، وغلت بها الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة لم يسمع بمثلهما، وقام حسام الدين بن أبي علي الهذباني في حفظ دمشق أتم قيام، وخرجت السنة والأمر على ذلك.

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة قصدت التتر بغداد، وخرجت عساكر بغداد للقائهم، ولم يكن للتتر بهم طاقة، فولى التتر منهزمين على أعقابهم تحت الليل.

وفي هذه السنة توفيت ربيعة خاتون بنت أيوب، أخت السلطان صلاح الدين بدمشق بدار العقيقي، وكانت قد تجاوزت ثمانين سنة، وبنت مدرسة للحنابلة بجبل الصالحية.

وفيهما توفي الشيخ تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن صلاح الفقيه المحدث.

وفيهما توفي علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي شرح قصيدة الشاطبي في القراءات، وشرح المفصل للزخشي، وسمى شرحه المفصل في شرح المفصل، وله مجموع سماه كتاب سفر السعادة وسفير الافادة، ذكر فيه مسائل مشكلة في النحو، وعدة من أبيات المعاني، ولغة غريبة.

وفي هذه السنة لما تسلم دمشق الملك الصالح أيوب، تسلم نواب الملك المنصور صاحب حماة سلمية، وانتزعوها من صاحب حمص، واستقرت سلمية في هذه السنة في ملك الملك المنصور صاحب حماة.

وفيهما توفي الشيخ موفق الدين أبو البقاء يعيش بن محمد بن علي الموصلبي الأصل، الحلبي المولد والمنشأ، النحوي ويعرف بابن الصائغ وكان ظريفا حسن المحاضرة شرح المفصل شرحا مستوفى ليس في الشروح مثله وله غير ذلك، وولد في رمضان سنة ثلاث وخمسين وخمسة مائة بحلب وتوفي بها في التاريخ المذكور ودفن بالمقام.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وستمائة

ذكر كسرة الخوارزمية على القصب واستيلاء الصالح أيوب على بعلبك

كنا قد ذكرنا اتفاق الخوارزمية مع الصالح اسماعيل والناصر داود، ومحاصرتهم دمشق، وبها حسام الدين بن أبي علي، ولما وقع ذلك اتفق الحلبيون والملك المنصور ابراهيم صاحب حمص، وصاروا مع الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وقصدوا الخوارزمية، فرحلت الخوارزمية عن دمشق وساروا إلى نحو الحلبين وصاحب حمص، والتقوا على القصب في هذه السنة، فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها، وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان، وحمل رأسه إلى حلب، ومضت طائفة من الخوارزميين مع مقدمهم كشلو خان الخوارزمي، فلاحقوا بالتر، وصاروا معهم، وانقطع منهم جماعة، وتفرقوا في الشام وخدموا به، وكفى الله الناس شرهم، ولما وصل خبر كسرتهم إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فرح فرحا عظيما، ودقت البشائر بمصر، وزال ما كان عنده من الغيظ على ابراهيم صاحب حمص، وحصل بينهما التصافي بسبب ذلك، وأما الصالح اسماعيل فإنه سار إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب، واستجار به، وأرسل الصالح أيوب يطلبه، فلم يسلمه الملك الناصر إليه، ولما جرى ذلك رحل حسام الدين بن أبي علي الهذباني بمن عنده من العسكر بدمشق، ونازل بعلبك وبها أولاد الصالح اسماعيل وحاصرها وتسلمها بالأمان، وحمل أولاد الصالح اسماعيل إلى الملك الصالح أيوب بديار مصر فاعتقلوا هناك، وكذلك بعث بأمين الدولة وزير الملك الصالح اسماعيل وأستاذ ناصر الدين يغمور، فاعتقلا بمصر أيضا، وزينت القاهرة ومصر، ودقت البشائر بهما لفتح بعلبك، واتفق في هذه الأيام وفاة صاحب عجلون، وهو سيف الدين بن قليج،

فتسلم الملك الصالح أيوب عجلون أيضا، ولما جرى ما ذكرناه أرسل الملك الصالح أيوب عسكريا مع الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ، وكان فخر الدين ابن الشيخ قد اعتقله الملك العادل أبو بكر ابن الملك الكامل، ثم لما ملك الملك الصالح أيوب مصر أفرج عنه وأمره بملازمة بيته فلازمه مدة، ثم قدمه في هذه السنة على العسكر وجهزه إلى حرب الملك الناصر داود صاحب الكرك، فسار فخر الدين المذكور واستولى على جميع بلاد الملك الناصر داود وولى عليها، وسار إلى الكرك وحاصرها وخرب ضياعها، وضعف الملك الناصر ضعفا بالغا ولم يبق بيده غير الكرك وحدها.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة حبس الصالح أيوب مملوكه بيبرس، وهو الذي كان معه لما اعتقل في الكرك، وسببه ان بيبرس المذكور مال إلى الخوارزمية وإلى الناصر داود وصار معهم على أستاذه لما جرده إلى غزة كما تقدم ذكره، فأرسل أستاذه الصالح أيوب واستماله فوصل إليه فاعتقله في هذه السنة، وكان آخر العهد به.

وفيها أرسل الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص ابن شيركوه، وطلب دستورا من الملك الصالح أيوب ليصل إلى بابه وينتظم في سلك خدمته، وكان قد حصل بابراهيم المذكور السل وسار على تلك الحالة من حمص متوجها إلى الديار المصرية ووصل إلى دمشق فقوي به المرض، وتوفي في دمشق فنقل إلى حمص ودفن بها، وملك بعده ولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك المنصور ابراهيم المذكور.

وفي هذه السنة بعد فتوح دمشق وبعلبك استدعى الملك الصالح أيوب خدمة حسام الدين بن أبي علي إلى مصر، وأرسل موضعه نائبا

سنين، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وخلف ولداً صغيراً وهو الملك المغيث فتح الدين عمر، وهو الذي ملك الكرك فيها بعد، ثم قتله الملك الظاهر بيبرس على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة توجه الطواشي مرشد المنصوري، ومجاهد الدين أمير جندار من حماة إلى حلب، وأحضرا بنت الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر صاحب حلب، وهي عائشة خاتون زوج الملك المنصور صاحب حماة، وحضرت معها أمها فاطمة خاتون بنت السلطان الملك الكامل ابن العادل، ووصلت إلى حماة في العشر الأوسط من رمضان من هذه السنة، أعني سنة خمس وأربعين وستمائة، ووصلت في تجمل عظيم، واحتفل للقاءها بحماة احتفالاً عظيماً.

وفي هذه السنة توفي علاء الدين قرا سنقر الساقى العادلي، أحد مماليك الملك العادل بن أيوب، وصارت مماليكه بالولاء للملك الصالح أيوب، ومنهم سيف الدين قلاوون الصالحي، الذي صار له ملك مصر والشام على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.....

ثم دخلت سنة ست وأربعين وستائة

فيها أرسل الملك الناصر صاحب حلب عسكرياً مع شمس الدين لؤلؤ الأرمني، فحاصروا الملك الأشرف موسى بحمص مدة شهرين، فسلم إليهم حمص وتعوض عنها بتل باشر مضافاً إلى ما بيده من تدمر والرحبة، ولما بلغ الملك الصالح نجم الدين أيوب ذلك شق عليه، وسار إلى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين، وكان قد حصل له مرض وورم في مآبطه، ثم فتح وحصل منه ناصور، ووصل الملك الصالح إلى دمشق، وأرسل عسكرياً إلى حمص مع حسام الدين ابن أبي علي وفخر الدين ابن الشيخ، فنازلوا حمص وحصروها، ونصبوا عليها منجنيقاً مغربياً يرمي

بحجر زنتها مائة وأربعون رطلا بالشامي، مع عدة منجنيقات آخر، وكان الشتاء والبرد قويا، واستمر عليها الحصار واتفق حينئذ وصول الخبر إلى الملك الصالح وهو بدمشق بوصول الفرنج إلى جهة دمياط، وكان أيضا قد قوي مرضه، ووصل أيضا نجم الدين الباذرائي رسول الخليفة، وسعى في الصلح بين الملك الصالح والحلبيين، وأن تستقر حمص بيد الحلبيين، فأجاب الملك الصالح إلى ذلك وأمر العسكر فرحلوا عن حمص بعد أن أشرفوا على أخذها، ثم رحل الملك الصالح عن دمشق في محفة لقوة مرضه، واستتاب بدمشق جمال الدين بن يغمور، وعزل ابن مطروح، وأرسل حسام الدين ابن أبي علي قدامه ليسبقه إلى مصر وينوب عنه بها.

وفيها في يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من السنة المذكورة، أعني سنة ست وأربعين وستمائة توفي أبو عمرو عثمان بن عمر ابن أبي بكر بن يونس المعروف بابن الحاجب الملقب جمال الدين، وكان والده عمر حاجبا للأمير عز الدين بن موسك الصلاحى، وكان كرديا واشتغل ولده أبو عمرو المذكور بالقاهرة في صغره بالقرآن والفقہ على مذهب مالك بن أنس وبالعربية، وبرع في علومه وأتقنها ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعة وأكب الخلق على الاشتغال عليه، ثم عاد إلى القاهرة ثم انتقل إلى الاسكندرية فتوفي بها وكان مولد الشيخ أبي عمرو المذكور في أواخر سنة سبعين وخمسة بآسنا بليدة بالصعيد، وكان الشيخ أبو عمرو المذكور متفنا في علوم شتى، وكان الاغلب عليه علم العربية وأصول الفقہ، صنف في العربية مقدمته الكافية، واختصر كتاب الأحكام للآمدي في أصول الفقہ، فطبق ذكر هذين الكتابين أعني: الكافية، ومختصره في أصول الفقہ جميع البلاد خصوصا بلاد العجم، وأكب الناس على الاشتغال بهما إلى زماننا هذا، وله غيرهما عدة مصنفات.

وفيها أعني في سنة ست وأربعين وستمائة توفي عز الدين أيبك المعظمي، في محبسه بالقاهرة، وكان المذكور قد ملك صرخد في سنة ثمان وستمائة حسبما تقدم ذكره في السنة المذكورة، وقال ابن خلكان: إنه ملك صرخد في سنة احدى عشرة وستمائة، قال: لأن أستاذه الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب حج في السنة المذكورة، وأخذ صرخد من صاحبها ابن قراجا، وأعطاه مملوكه أيبك المذكور، والظاهر أن الأول أصح، واستمرت في يد أيبك إلى سنة أربع وأربعين وستمائة، فأخذها الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل من أيبك المذكور، وأمسك أيبك في السنة المذكورة، وحمله إلى القاهرة وحبسه في دار الطواشي صواب، واستمر معتقلاً بها حتى توفي معتقلاً في هذه السنة في أوائل جمادى الأولى، ودفن خارج باب النصر في تربة شمس الدولة، ثم نقل إلى الشام ودفن في تربة كان قد أنشأها بظاهر دمشق على الشرف الأعلى مطلية على الميدان الأخضر الكبير رحمه الله تعالى، هكذا نقلت ذلك من وفيات الاعيان.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وستمائة

ذكر ملك الفرنج دمياط ونزول الملك الصالح أشمون طناح

وفي هذه السنة سار ريد افرنس، وهو من أعظم ملوك الفرنج، وريد بلغتهم هو الملك أي ملك افرنس، وفرنس أمة عظيمة من أمم الفرنج، وكان جمع ريد افرنس نحو خمسين ألف مقاتل، وشتى في جزيرة قبرس، ثم سار ووصل في هذه السنة إلى دمياط، وكان قد شحنها الملك الصالح بالآت عظيمة وذخائر وافرة، وجعل فيها بني كنانة، وهم مشهورون

بالشجاعة، وكان قد أرسل الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ بجماعة كثيرة من العسكر ليكونوا قبالة الفرنج بظاهر دمياط، ولما وصلت الفرنج عبر فخر الدين ابن الشيخ من البر الغربي إلى البر الشرقي، ووصلت الفرنج إلى البر الغربي لتسع بقين من صفر هذه السنة، ولما جرى ذلك هربت بنو كنانة وأهل دمياط منها، وأخلوا دمياط وتركوا أبوابها مفتحة، فتملكها الفرنج بغير قتال واستولوا على ما بها من الذخائر والسلاحات، وكان هذا من أعظم المصائب، وعظم ذلك على الملك الصالح، وأمر بشنق بني كنانة فشنقوا عن آخرهم، ووصل الملك الصالح إلى المنصورة ونزل بها يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر هذه السنة، وقد اشتد مرضه وهو السل والقرحة التي كانت به وقد ايس منه.

ذكر استيلاء الملك الصالح أيوب على الكرك

وفي هذه السنة سار الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب من الكرك إلى حلب، لما ضاقت عليه الأمور مستجيرا بالملك الناصر صاحب حلب، وكان قد بقي عند الناصر داود من الجوهر مقدار كثير، قال: كان يساوي مائة ألف دينار إذا بيع بالهوان، فلما وصل إلى حلب سير الجوهر المذكور إلى بغداد وأودعه عند الخليفة المستعصم، ووصل إليه خط الخليفة بتسليمه، فلم تقع عينه عليه بعد ذلك، ولما سار الناصر داود عن الكرك استتاب عليها ابنه عيسى، ولقبه الملك المعظم، وكان له ولدان آخران أكبر من عيسى المذكور هما: الأجد حسن والظاهر شاذي، فغضب الأخوان المذكوران من تقديم أخيها عيسى عليهما، وبعد سفر أبيهما قبضا على أخيها عيسى، وتوجه الأجد حسن إلى الملك الصالح أيوب، وهو مريض على المنصورة، وبذل له تسليم الكرك على اقطاع له ولأخيه بديار مصر، فأحسن إليه الصالح أيوب وأعطاهما اقطاعا أرضاهما، وأرسل إلى الكرك

وتسلمها يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة، وفرح الملك الصالح بالكرك فرحا عظيما مع ما هو فيه من المرض، لما كان في خاطره من صاحبها.

ذكر وفاة الملك الصالح أيوب

وفي هذه السنة توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان هذه السنة، أعني سبع وأربعين وستائة، وكانت مدة مملكته للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما، وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة، وكان مهيبا عالي الهمة عفيفا طاهر اللسان والذليل، شديد الوقار كثير الصمت، وجمع من المماليك الترك مالم يجتمع لغيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء عسكره مماليكه، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه وساهم البحرية، وكان لا يجسر أن يخاطبه أحد إلا جوابا، ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداء وكانت القصص توضع بين يديه مع الخدام فيكتب بيده عليها وتخرج للموقعين، وكان لا يستقل أحد من أهل دولته بأمر من الامور إلا بعد مشاورته بالقصص، وكان غاويا بالعمارة، بنى قلعة الجزيرة، وبنى الصالحية، وهي بلدة بالسايح، وبنى له بها قصورا للتصيد، وبنى قصرا عظيما بين مصر والقاهرة يسمى بالكبش، وكانت أم الملك الصالح أيوب المذكور جارية سوداء تسمى ورد المنى غشيها السلطان الملك الكامل فحملت بالملك الصالح، وكان للملك الصالح ثلاثة أولاد أحدهم فتح الدين عمر، توفي في حبس الصالح اسماعيل وكان قد توفي ولده الآخر قبله، ولم يكن قد بقى له غير المعظم تورانشاه بحصن كيفا، ومات الملك الصالح ولم يوص بالملك إلى احد فلما توفي أحضرت شجر

الدر، وهي جارية الملك الصالح فخر الدين ابن الشيخ والطواشي جمال الدين محسنا، وعرفتها بموت السلطان، فكتموا ذلك خوفا من الفرنج، وجمعت شجر الدر الأمراء وقالت لهم السلطان يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا، وللأمير فخر الدين ابن الشيخ بأتابكية العسكر، وكتبت إلى حسام الدين بن أبي علي، وهو النائب بمصر بمثل ذلك، فحلفت الأمراء والاجناد والكبراء بالعسكر وبمصر وبالقاهرة على ذلك في العشر الأوسط من شعبان هذه السنة، وكان بعد ذلك تخرج الكتب والمراسم وعليها علامة الملك الصالح، وكان يكتبها خادم يقال له السهيلي فلا يشك أحد في أنه خط السلطان، فأرسل فخر الدين ابن الشيخ قاصدا لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا، ولما جرى ذلك شاع بين الناس موت السلطان ولكن

أرباب الدولة لا يجسرون أن يتفوهوا بذلك، وتقدم الفرنج عن دمياط إلى المنصورة، وجرى بينهم وبين المسلمين في مستهل رمضان من هذه السنة وقعة عظيمة استشهد فيها جماعة من كبار المسلمين، ونزلت الفرنج بحر مساح، ثم قربوا من المسلمين، ثم إن الفرنج كبسوا المسلمين على المنصورة بكرة الثلاثاء لخمس مضي من ذي القعدة، وكان فخر الدين يوسف ابن الشيخ صدر الدين ابن حمويه في الحمام بالمنصورة فركب مسرعا وصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه، وكان سه لدا في الدنيا ومات شهيدا، ثم حملت المسلمون والترك البحرية على الفرنج فردوهم على أعقابهم، واستمرت بهم الهزيمة، وأما الملك المعظم تورانشاه فإنه سار من حصن كيفا ووصل إلى دمشق في رمضان من هذه السنة، أعني سنة سبع وأربعين وستائة، ثم اشتد القتال بين المسلمين والفرنج براً وبحراً، ووقعت مراكب المسلمين على الفرنج وأخذوا منهم اثنين وثلاثين مركبا، منها تسع شواني، فضعفت الفرنج لذلك وأرسلوا يطلبون القدس وبعض الساحل وأن يسلموا دمياط إلى المسلمين، فلم تقع الاجابة إلى ذلك.

ذكر غير ذلك

وفي هذه السنة وقع الحرب بين صاحب الموصل بدرالدين لؤلؤ، وبين الملك الناصر صاحب حلب، فأرسل اليه الملك الناصر عسكرياً والتقوا مع المواصلة بظاهر نصيبين، فانهزمت المواصلة هزيمة قبيحة، واستولى الحلييون على أُنُقَال لؤلؤ صاحب الموصل وخيمه، وتسلم الحلييون نصيبين وأخذوها من صاحب الموصل، ثم ساروا إلى دارا فنازلوها وتسلموها وخربوها بعد حصار ثلاثة أشهر، ثم تسلموا قرقيسيا وعادوا إلى حلب.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة

ذكر هزيمة الفرنج وأسر ملكهم

لما أقام الفرنج قبالة المسلمين بالمنصورة فبيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط، فإن المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط إليهم، فلم يبق لهم صبر على المقام، فرحلوا الأربعاء لثلاث مضيئ من المحرم متوجهين إلى دمياط، وركب المسلمون أكتافهم، ولما أسفر صباح الأربعاء خالطهم المسلمون، وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم إلا القليل، وبلغت عدة القتلى من الفرنج ثلاثين ألفاً على ما قيل، وإنحاز ريد افرنس ومن معه من الملوك إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشي محسن الصالحي، ثم احتيط عليهم وأحضروا إلى المنصورة، وقيد ريد افرنس وجعل في الدار التي كان ينزلها كاتب الانشاء فخر الدين ابن لقمان، ووكل به الطواشي صبيح المعظمي، ولما جرى ذلك رحل الملك المعظم بالعساكر من المنصورة ونزل بفارسكور، ونصب بها برج خشب للملك المعظم.

ذكر مقتل الملك المعظم

وفي هذه السنة يوم الاثنين ليلة بقيت من المحرم قتل الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وسبب ذلك ان المذكور أطرح جانب أمراء أبيه ومماليكه وكل منهم بلغه عنه من التهديد والوعيد مانفر قلبه منه، واعتمد على بطانته الذين وصلوا معه من حصن كيفا، وكانوا اطرافا أراذل، فاجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور، وهجموا عليه بالسيوف، وكان أول من ضربه ركن الدين بيبرس، والذي صار سلطانا فيما بعد على ما سنذكره إن شاء الله تعالى، فهرب الملك المعظم منهم إلى البرج الخشب الذي نصب له بفارسكور على ما تقدم ذكره، فأطلقوا في البرج النار فخرج الملك المعظم من البرج هاربا طالبا البحر ليركب في حراقتة، فحالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه في البحر فأدركوه وأتموا قتله في نهار الاثنين المذكور، وكانت مدة اقامته في المملكة من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياما، ولما جرى ذلك اجتمعت الامراء واتفقوا على أن يقيموا شجر الدر زوجة الملك الصالح في المملكة، وأن يكون عز الدين أيبيك الجاشنكير الصالحي المعروف بالتركماني أتاك العسكر، وحلفوا على ذلك، وخطب لشجر الدر على المنابر، وضربت السكة باسمها، وكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل، وكانت شجر الدر قد ولدت من الملك الصالح ولدا ومات صغيرا، وكان اسمه خليل فسميت والدة خليل، وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع والدة خليل، ولما استقر ذلك وقع الحديث مع ريد افرنس في تسليم دمياط بالافراج عنه، فتقدم ريد افرنس إلى من بها من نوابه في تسليمها فسلموها، وصعد إليها العلم السلطاني يوم الجمعة لثلاث مضي من صفر من هذه السنة، أعني سنة

ثمان وأربعين وستمائة، وأطلق ريد افرنس فركب في البحر بمن سلم معه
نهار السبت غد الجمعة المذكورة، وأقلعوا إلى عكا ووردت البشري بهذا
الفتح العظيم إلى سائر الاقطار، وفي واقعة ريد افرنس يقول جمال الدين
يجبى بن مطروح أبياتا منها:
قل للفرنسيس اذا جتته

مقال صدق عن قؤول نصيح
اتيبت مصر اتبغني ملكها
تحسب ان الزمرياط بل ريح
وكل اصحابك اوردتهم
بحسن تدبيرك بطن الضريح

. خمسون ألفا لا يرى منهم
غير قتيل أو أسير جريح
وقل لهم إن أضمر واعدودة
لأخذ ثار أو بقصد صحيح
دار ابـن لقمان على حالها
والقيد باقي والطواشي صبيح

ثم عادت العساكر، ودخلت القاهرة يوم الخميس تاسع صفر من
السنة المذكورة، وأرسل المصريون رسولا إلى الأمراء الذين بدمشق في
موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا إليه، وكان الملك السعيد ابن الملك
العزیز عثمان ابن الملك العادل صاحب الصبيبة قد سلمها إلى الملك
الصالح أيوب، فلما جرى ذلك قصد قلعة الصبيبة فسلمت إليه، وكان
من الملك السعيد ما سنذكره ان شاء الله تعالى.

ذكر ملك الملك المغيـث الكرك

كان الملك المغيـث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، قد أرسله الملك المعظم تورانشاه لما وصل الى الديار المصرية إلى الشوبك، واعتقله بها، وكان النائب على الكرك والشوبك بدر الدين الصوابي الصالحي، فلما جرى ما ذكرناه من قتل الملك المعظم، ولما استقر عليه الحال بادر بدر الدين الصوابي المذكور فأفرج عن المغيـث، وملكه القلعتين الكرك والشوبك، وقام في خدمته أتم قيام.

ذكر استيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق

ولما جرى ما ذكرناه ولم يجب أمراء دمشق إلى ذلك كاتب الأمراء القيمرية الذين بها الملك الناصر يوسف صاحب حلب ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين، فسار إليهم وملك دمشق ودخلها في يوم السبت لثمان مضيـن من ربيع الآخر من هذه السنة، ولما استقر الناصر المذكور في ملك دمشق خلع على جمال الدين ابن يغمور، وعلى الأمراء القيمرية بها، وأحسن إليهم واعتقل جماعة من الأمراء مماليك الملك الصالح، وعصت عليه: بعلبك، وعجلون، وشميميس مدة مديدة، ثم سلمت جميعها إليه، ولما ورد الخبر بذلك إلى مصر قبضوا على من عندهم من القيمرية، وعلى كل من اتهم بالميل إلى الحلبيين.

ذكر سلطنة أيبك التركماني

ثم إن كبراء الدولة اتفقوا على إقامة عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي في السلطنة، لأنه اذا استقر أمر المملكة في امرأة على ما هو عليه

الحال تفسد الأمور، فأقاموا أيبك المذكور وركب بالسناجق السلطانية، وحملت الغاشية بين يديه يوم السبت آخر ربيع الآخر من هذه السنة، ولقب بالملك المعز، وأبطلت السكة والخطبة التي كانت باسم شجر الدر.

ذكر عقد السلطنة للملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن المعروف بأقسييس

ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

ثم اجتمعت الأمراء واتفقوا على أنه لا بد من إقامة شخص من بني أيوب في السلطنة، واجتمعوا على إقامة موسى المذكور ولقبوه الملك الأشرف، وأن يكون أيبك التركماني أتاكبه، وأجلس الأشرف موسى المذكور في دست السلطنة، وحضرت الأمراء في خدمته يوم السبت لخمس مضمين من جمادى الأولى من هذه السنة، وكان بغزة حينئذ جماعة من عسكر مصر مقدمهم خاص ترك، فسار إليهم عسكر دمشق فاندفعوا من غزة إلى الصالحية بالسايح، واتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك، وخطبوا له بالصالحية يوم الجمعة لأربع مضمين من جمادى الآخرة من هذه السنة، ولما جرى ذلك اتفق كبراء الدولة بمصر، ونادوا بالقاهرة ومصر إن البلاد للخليفة المستعصم، ثم جددت الأيمان للملك الأشرف موسى بالسلطنة ولأيبك التركماني بالأتابكية، وفي يوم الأحد لخمس مضمين من رجب رحل فارس الدين أقطاي الصالحي الجمدار متوجها إلى جهة غزة ومعه تقدير ألفي فارس، وكان أقطاي المذكور مقدم البحرية، فلما وصل إلى غزة اندفع من كان بها من جهة الملك الناصر بين يديه.

ذكر تخريب دمياط .

وفي هذه السنة اتفقت آراء أكابر الدولة، وهدموا سور دمياط في العشر الأخير من شعبان هذه السنة لما حصل للمسلمين عليها من الشدة مرة بعد أخرى، وبنوا مدينة بالقرب منها في البر وسموها المنشية، وأسوار دمياط التي هدمت من عمارة المتوكل الخليفة العباسي.

ذكر القبض على الناصر داود

وفي هذه السنة مستهل شعبان قبض الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب على الناصر داود الذي كان صاحب الكرك، وبعث به إلى حمص فاعتقل، وذلك لأشياء بلغت الناصر يوسف عن المذكور خاف منها.

ذكر مسير السلطان الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الديار المصرية وكسرتة

وفي هذه السنة سار الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الملك العزيز بعساكره من دمشق، وصحبته من ملوك أهل بيته: الصالح اسماعيل بن العادل بن أيوب، والأشرف موسى صاحب حمص، وهو حينئذ صاحب تل باشر والرحبة وتدمر، والمعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين، وأخو المعظم المذكور نصره الدين، والأجد حسن، والظاهر شادي ابنا الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى بن العادل بن أيوب، وتقي الدين عباس ابن الملك العادل بن أيوب، ومقدم الجيش شمس الدين لؤلؤ الأرميني، وإليه تدبير المملكة، فرحلوا من دمشق يوم الأحد منتصف رمضان من هذه السنة، ولما بلغ المصريين ذلك اهتموا

لقتاله ودفعه، وبرزوا إلى السايح وتركوا الأشرف المسمى بالسلطان بقلعة الجبل، وأفرج أيك التركماني حينئذ عن ولدي الصالح اسماعيل، وكانا معتقلين من حين استيلاء الملك الصالح أيوب على بعلبك، وخلع عليهما ليتوهم الناصر يوسف صاحب دمشق من أبيهما الصالح اسماعيل، والتقى العسكران المصري والشامي بالقرب من العباسية في يوم الخميس عاشر ذي القعدة من هذه السنة، فكانت الكسرة أولا على عسكر مصر، فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق، وثبت المعز أيك التركماني في جماعة قليلة من البحرية، فانضاف جماعة من العزيزية مماليك والد الملك الناصر إلى أيك التركماني ولما انكسر المصريون وتبعتهم العساكر الشامية، ولم يشكوا في النصر، بقي الملك الناصر تحت السناجق السلطانية مع جماعة يسيرة من المتعممين لا يتحرك من موضعه، فحمل المعز التركماني بمن معه عليه فولى الملك الناصر منهزما طالبا جهة الشام، ثم حمل أيك المذكور على طلب شمس الدين لؤلؤ فهزموهم، وأخذ شمس الدين لؤلؤ أسيرا، فضربت عنقه بين يديه، وكذلك أسر الأمير ضياء الدين القيمري، فضربت عنقه، وأسر يومئذ الملك الصالح اسماعيل، والأشرف صاحب حمص، والمعظم تورانشاه بن صلاح الدين بن أيوب، وأخوه نصره الدين، ووصل عسكر الملك الناصر في أثر المنهزمين إلى العباسية وضربوا بها دهليز الملك الناصر، وهم لا يشكون ان الهزيمة تمت على المصريين، فلما بلغهم هروب الملك الناصر اختلفت آراؤهم، فمنهم من أشار بالدخول إلى القاهرة وتملكها، ولو فعلوه لما كان بقي مع أيك التركماني من يقاتلهم به، وكان هرب فإن غالب المصريين المنهزمين وصلوا إلى الصعيد، ومنهم من أشار بالرجوع إلى الشام، وكان معهم تاج الملوك بن المعظم، وهو مجروح وكانت الوقعة يوم الخميس، ووصل المنهزمون من مصر إلى القاهرة في غد الوقعة نهار الجمعة فلم يشك أهل مصر في ملك الملك الناصر ديار مصر، وخطب له في الجمعة المذكورة بقلعة الجبل

ومصر، وأما القاهرة فلم يتم فيها في ذلك النهار خطبة لأحد، ثم وردت إليهم البشرى بانتصار البحرية ودخل أيبك التركماني والبحرية إلى القاهرة يوم السبت ثاني عشر ذي القعدة، ومعه الصالح اسماعيل تحت الاحتياط وغيره من المعتقلين، فحبسوا بقلعة الجبل، وعقب ذلك أخرج أيبك التركماني أمين الدولة وزير الصالح اسماعيل، واستأذ داره يغمور، وكانا معتقلين من حين استيلاء الصالح أيوب على بعلبك فشنقهما على باب قلعة الجبل رابع عشر ذي القعدة، وفي ليلة الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة هجم جماعة على الملك الصالح عماد الدين اسماعيل ابن الملك العادل بن أيوب وهو يمص قصب سكر، وأخرجوه إلى ظاهر قلعة الجبل من جهة القرافة فقتلوه، ودفن هناك وعمره قريب من خمسين سنة، وكانت أمه رومية من حظايا الملك العادل.

وفي هذه السنة بعد هزيمة الملك الناصر صاحب الشام، سار فارس الدين أقطاي بثلاثة آلاف إلى غزة فاستولى عليها، ثم عاد إلى الديار المصرية.....

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وستمائة

فيها توفي صاحب محيي الدين بن مطروح، وكان متقدما عند الملك الصالح أيوب، وكان يتولى له، لما كان الصالح بالشرق، نظر الجيش، ثم استعمله على دمشق، ثم عزله، وولى ابن يغمور، وكان ابن مطروح المذكور فاضلاً في النثر والنظم فمن شعره:
عانتقه فسكرت من طيب الشذا
غصن رطيب بالنسيم قد اغتذا

- ١٠٢٦٩ -

نشوان مـاشرب المدام وانما
أمسى بخمر رضاب متبذبا
جاء العذول يلومني من بعدما
أخذ الغرام علي فيه مأخذا
لأرعي لا انثني لانتهبي
عن جبه فليهدفيه من هدى
إن عشت عشت على الغرام وإن أمت
وجدا به وصبا بة يا حبا

وفيها جهز الملك الناصر يوسف صاحب الشام عسكرياً إلى غزة،
وخرج المصريون إلى الساحل، وأقاموا كذلك حتى خرجت هذه
السنة.....

ثم دخلت سنة خمسين وستائة

ولم يقع لنا فيها ما يصلح ان يؤرخ.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وستائة

فيها استقر الصلح بين الملك الناصر يوسف صاحب الشام وبين
البحرية بمصر على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن، وللملك الناصر
ما وراء ذلك، وكان نجم الدين الباذرائي رسول الخليفة هو الذي حضر
من جهة الخليفة، وأصلح بينهم على ذلك، ورجع كل إلى مقره.

وفيها قطع أيبك التركماني خبز حسام الدين ابن أبي علي الهذباني، فطلب دستوراً فأعطيه، وسار إلى الشام، فاستخدمه الملك الناصر يوسف بدمشق.

ذكر احوال الملك الناصر صاحب الكرك

وفيها أفرج الملك الناصريوسف عن الملك الناصر داود بن المعظم، الذي كان صاحب الكرك، وكان قد اعتقله بقلعة حمص وذلك بشفاعة الخليفة المستعصم فيه، فأفرج عنه وأمره أن لا يسكن في بلاده، فرحل الناصر داود المذكور إلى جهة بغداد، فلم يمكنه من الوصول إليها وطلب وديعته الجواهر فمنعوه إياها، وكتب الملك الناصر يوسف إلى ملوك الاطراف أنهم لا يأووه ولا يميروه، فبقي الناصر داود في جهات عانة والحديثة، وضاقت به الأحوال وبمن معه، وانضم إليه جماعة من غزیه، فبقوا يرحلون وينزلون جميعاً، ثم لما قوي عليهم الحر ولم يبق بالبرية عشب قصدوا أزوار الفرات يقاسون بق الليل وهو اجر النهار، وكان معه أولاده، وكان لولده الظاهر شادي فهد فكان يتصيد في النهار ما يزيد على عشرة غزلان، وكان يمضي للملك الناصر داود وأصحابه أياماً لا يطعمون غير لحوم الغزلان، واتفق أن الاشرف صاحب تل باشر وتدمر والرحبة يومئذ أرسل إلى الناصر داود مركبين موسقين دقيقاً وشعيراً، فأرسل صاحب حمص وتهده على ذلك، ثم إن الناصر داود قصد مكاناً للشرابي، واستجار به فرتب له الشرابي شيئاً دون كفايته، وأذن له في النزول بالأنبار وبينها وبين بغداد ثلاثة أيام، والناصر داود مع ذلك يتضرع إلى الخليفة المستعصم فلا يجيب ضراعتة، ويطلب وديعته فلا يرد لهفته، ولا يجيبه إلا بالمطالة والمطاوله، وكانت مدة مقامه متنقلاً في

الصحارى مع غزيه قريب ثلاثة أشهر، ثم بعد ذلك أرسل الخليفة وشفع فيه عند الملك الناصر، فأذن له في العود إلى دمشق ورتب له مائة ألف درهم على بحيرة فامية وغيرها، فلم يتحصل له من ذلك إلا دون ثلاثين ألف درهم.

وفي هذه السنة وصلت الأخبار من مكة بأن ناراً ظهرت من عدن، وبعض جبالها، بحيث كانت تظهر في الليل دخان عظيم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وستمائة.....

ذكر مقتل أقطاي

.... في هذه السنة اغتال الملك المعز أيك التركماني المستولي على مصر خوشداشه أقطاي الجمدار، وأوقف له في بعض دهاليز الدور التي بقلعة الجبل ثلاثة مماليك هم: قطز، وبهادر، وسنجر العجمي، فلما مر بهم فارس الدين أقطاي ضربوه بسيوفهم فقتلوه، ولما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر إلى الشام، وكان الفارس أقطاي يمنع أيك من الاستقلال بالسلطنة، وكان الاسم للملك الاشرف موسى بن يوسف بن يوسف ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، فلما قتل أقطاي استقل المعز التركماني بالسلطنة، وأبطل الاشرف موسى المذكور منها بالكلية، وبعث به إلى عماته القطيبات وموسى المذكور آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في مصر، وكان انقضاء دولتهم من الديار المصرية في هذه السنة على ما شرحناه، ووصلت البحرية إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام وأطمعوه في ملك مصر، فرحل من دمشق بعسكر ونزل عمقا من الغور، وأرسل إلى غزة عسكرياً فنزلوا بها، وبرز المعز أيك صاحب مصر إلى العباسية، وخرجت السنة وهم على ذلك.

وفيهما قدمت ملكة خاتون بنت كيقباذ ملك بلاد الروم إلى زوجها
الملك الناصر يوسف صاحب الشام.

وفيهما ولي الملك المنصور صاحب حماة قضاء حماة للقاضي شمس
الدين إبراهيم بن هبة الله بن البارزي، بعد عزل القاضي المحيي حمزة بن
محمد.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وستمائة

ففيها عزمت العزيزية، المقيمون مع المعز أيك على القبض عليه، وعلم
بذلك واستعد لهم، فهربوا من مخيمهم على العباسية على حماة، واحتيط
على وطاقتهم جميعها.

وفي هذه السنة مشى نجم الدين الباذرائي في الصلح بين المصريين
والشاميين، واتفق الحال أن يكون للملك الناصر الشام جميعه إلى
العريش، ويكون الحد بير القاضي، وهو بين الوراثة والعريش، ويد
المعز أيك الديار المصرية، وانفصل الحال على ذلك ورجع كل إلى بلده.

وفي هذه السنة أو التي قبلها تزوج المعز أيك شجر الدر أم خليل،
التي خطب لها بالسلطنة في ديار مصر.

وفيهما طلب الملك الناصر داود من الملك الناصر يوسف دستوراً إلى
العراق بسبب طلب وديعته من الخليفة، وهي الجوهرة الذي تقدم ذكره،
وأن يمضي إلى الحج فأذن له الناصر يوسف في ذلك، فسار الناصر داود
إلى كربلاء ثم مضى منها إلى الحج، ولما رأى قبر النبي ﷺ تعلق في
استار الحجر الشريفة بحضور الناس، وقال: اشهدوا أن هذا مقامي من
رسول الله ﷺ داخلا عليه مستشفعاً به إلى ابن عمه المستعصم في أن يرد
على وديعتي، فأعظم الناس ذلك، وجرت عبراتهم وارتفع بكأؤهم،

وكتب بصورة ماجرى مشروح، ورفع إلى أمير الحاج كيخسرو، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة، وتوجه الناصر داود مع الحاج العراقي وأقام ببغداد.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وستمائة

فيها مات كيخسرو ملك بلاد الروم، وأقيم في السلطنة ولداه الصغيران عز الدين كيكاس، وركن الدين قليج أرسلان.

وفيها توجه كمال الدين المعروف بابن العديم رسولاً من الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الخليفة المستعصم، وصحبه مقدمة جليلة، وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه، ووصل من جهة المعز أيبك صاحب مصر شمس الدين سنقر الأقرع، وهو من ممالك المظفر غازي صاحب ميافارقين إلى بغداد بتقدمة جليلة، وسعى في تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب دمشق، فبقي الخليفة متحيراً، ثم أحضر سكيناً من اليشم [حجر كريم] كبيرة وقال الخليفة لوزيره أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة مني في أن له خلعة عندي في وقت آخر، وأما في هذا الوقت فلا يمكنني، فأخذ كمال الدين بن العديم السكين، وعاد إلى الناصر يوسف بغير خلعة.

ذكر غير ذلك

فيها جرى للناصر داود مع الخليفة ماصورته انه لما أقام ببغداد بعد وصوله مع الحجاج واستشفاعه بالنبي ﷺ في رده وديعته، أرسل الخليفة المستعصم من حاسب الناصر داود المذكور على ماوصله في ترده إلى بغداد من المضيف مثل اللحم، والخبز، والحطب، والعلف، والتبن، وغير

ذلك وثمان عليه ذلك بأغلى الأثمان، وأرسل إليه شيئاً نزرأ وألزمه أن يكتب خطه بقبض وديعته وأنه مابقي يستحق عند الخليفة شيئاً، فكتب خطه بذلك كرها، وسار عن بغداد وأقام مع العرب، ثم أرسل إليه الناصر يوسف بن العزيز بن غازي بن يوسف صاحب الشام، فطيب قلبه وحلف له، فقدم الناصر داود إلى دمشق ونزل بالصالحية.

وفي هذه السنة يوم الأحد ثالث شوال، توفي سيف الدين طغريل، مملوك الملك المظفر محمود صاحب حماة، وكان قد زوجه المظفر المذكور بأخته، وقام بتدبير مملكة حماة بعد وفاة الملك المظفر حتى توفي في التاريخ المذكور.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وستمائة

ذكر مقتل المعز أيك التركماني

وفي هذه السنة في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول، قتل الملك المعز أيك التركماني الجاشنكير الصالحي، قتلته امرأته شجر الدر، التي كانت امرأة أستاذه الملك الصالح أيوب، وهي التي خطب لها بالسلطنة في ديار مصر، وكان سبب ذلك أنه بلغها أن المعز أيك المذكور قد خطب بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، ويريد أن يتزوجها، فقتلته في الحمام بعد عوده من لعب الكرة في النهار المذكور، وكان الذي قتله سنجر الجوجري، مملوك الطواشي محسن، والخدام حسبما اتفقت معهم شجر الدر، وأرسلت في تلك الليلة أصبع المعز أيك وخاتمه إلى الامير عز الدين الحلبي الكبير، وطلبت منه أن يقوم بالأمر، فلم يجسر على ذلك، ولما ظهر الخبر أراد ممالك المعز أيك قتل شجر الدر، فحماها الممالك الصالحية، فانفقت الكلمة على إقامة نور الدين

علي ابن الملك المعز أيك، ولقبوه الملك المنصور، وعمره يومئذ خمس عشرة سنة، ونقلت شجر الدر من دار السلطنة إلى البرج الأحمر، وصلبوا الخدام الذين اتفقوا معها على قتل المعز أيك، وهرب سنجر الجوجري، ثم ظفروا به وصلبوه، واحتيط على الصاحب بهاء الدين علي بن جنا لكونه وزير شجر الدر، وأخذ خطه بستين ألف دينار.

وفي يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر من هذه السنة، اتفقت ممالك المعز أيك مثل سيف الدين قطز، وسنجر الغتمي وبهادر، وقبضوا على علم الدين سنجر الحلبي، وكان صار أتاكاً للملك المنصور نور الدين علي ابن الملك المعز أيك، ورتبوا في أتاكية المذكور أقطاي المستعرب الصالحي.

وفي سادس عشر ربيع الآخر من السنة المذكورة قُتلت شجر الدر، وألقيت خارج البرج، فحملت إلى تربة كانت قد عملتها فدفنت فيها، وكانت تركية الجنس، وقيل كانت أرمنية، وكانت مع الملك الصالح في الاعتقال بالكرك، وولدت منه ولداً اسمه خليل مات صغيراً، وبعد أيام من ذلك خنق شرف الدين الفائزي.

ذكر مفارقة البحرية الملك الناصر يوسف صاحب الشام ابن الملك العزيز

وفي هذه السنة نقل إلى الناصر يوسف أن البحرية يريدون أن يفتكوا به، فاستوحش خاطره منهم، وتقدم إليهم بالانتزاع عن دمشق، فساروا إلى غزة، وانتموا إلى الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل، وانزعج أهل مصر لقدم البحرية إلى غزة، فبرزوا إلى العباسية، ووصل من البحرية جماعة مقفزين إلى القاهرة، منهم:

عز الدين الأثرم، فأكرمهم وأفرجوا عن أملاك الأثرم، ولما فارق البحرية الناصر صاحب الشام أرسل عسكرياً في أثرهم، فكبس البحرية ذلك العسكر، ونالوا منه، ثم إن عسكر الناصر بعد الكبسة كسروا البحرية فانهزموا إلى البلقاء وإلى زغر ملتجئين إلى الملك المغيث صاحب الكرك، فأنفق فيهم المغيث أموالاً جلييلة، وأطمعوه في ملك مصر، فجهزهم بما احتاجوه، وسارت البحرية إلى جهة مصر، وخرجت عساكر مصر لقتالهم، والتقى المصريون مع البحرية، وعسكر المغيث بكرة السبت منتصف ذي القعدة من هذه السنة، فانهزم عسكر المغيث والبحرية، وفيهم بيبرس البندقداري المسمى بعد ذلك الظاهر إلى جهة الكرك.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة وصل من الخليفة المستعصم الخلعة والطوق والتقليد إلى الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز.

وفيها استجار الناصر داود بنجم الدين الباذرائي في أن يتوجه صحبته إلى بغداد، فأخذه صحبته وتوصل الناصر يوسف إلى منعه عن ذلك فلم يتهياً له، وسار الناصر داود مع الباذرائي إلى قرقيسيا، فأخره الباذرائي ليشاور عليه، فأقام الناصر داود في قرقيسيا ينتظر الأذن بالقدوم إلى بغداد، فلم يؤذن له وطال مقامه، فسافر إلى البرية وقصد تيه بني اسرائيل، وأقام مع عرب تلك البلاد.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستائة

ذكر استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية

في أول هذه السنة قصد هولاءكو ملك التتر بغداد، وملكها في العشرين من المحرم، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وسبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين ابن العلقمي، كان رافضياً، وكان أهل الكرخ أيضاً روافض، فجرت فتنة بين السنية والشيعة ببغداد على جاري عاداتهم، فأمر أبو بكر ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العسكر فنهبوا الكرخ، وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمي، وكاتب التتر وأطمعهم في ملك بغداد وكان عسكر بغداد يبلغ مائة ألف فارس، فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتر متحصل اقطاعاتهم، وصار عسكر بغداد دون عشرين ألف فارس، وأرسل ابن العلقمي إلى التتر أخاه يستدعيهم فساروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم، خرج عسكر الخليفة لقتالهم ومقدمهم ركن الدين الدوادار، والتقوا على مرحلتين من بغداد، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم عسكر الخليفة، ودخل بعضهم بغداد وسار بعضهم إلى جهة الشام، ونزل هولاءكو على بغداد من الجانب الشرقي ونزل باجو، وهو مقدم كبير، في الجانب الغربي على قرية قبالة دار الخلافة، وخرج مؤيد الدين الوزير ابن العلقمي إلى هولاءكو فتوثق منه لنفسه، وعاد إلى الخليفة المستعصم وقال: إن هولاءكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر، وحسن له الخروج إلى هولاءكو، فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه، فأنزل في خيمة، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأمثال فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون وكان منهم محيي الدين بن الجوزي وأولاده، وكذلك بقي يخرج إلى التتر طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا قتلهم التتر عن آخرهم، ثم مدوا الجسر وعدى باجو ومن معه، وبذلوا السيف في بغداد، وهجموا دار الخلافة،

وقتلوا كل من كان فيها من الأشراف، ولم يسلم إلا من كان صغيراً، فأخذ أسيراً، ودام القتل والنهب في بغداد نحو أربعين يوماً، ثم نودي بالأمان.

وأما الخليفة فإنهم قتلوه، ولم يقع الاطلاع على كيفية قتله، فقليل خنق، وقليل وضع في عدل ورفسوه حتى مات، وقيل غرق في دجلة، والله أعلم بحقيقة ذلك، وكان هذا المستعصم وهو عبد الله أبو أحمد بن المستنصر أبي جعفر المنصور ابن محمد الظاهر ابن الامام الناصر أحمد، وقد تقدم ذكر باقي نسبه عند ذكر وفاة الامام الناصر، ضعيف الرأي، قد غلب عليه أمرء دولته لسوء تدبيره، تولى الخلافة بعد موت أبيه المستنصر في سنة أربعين وستائة، وكانت مدة خلافته نحو ست عشرة سنة تقريباً، وهو آخر الخلفاء العباسيين، وكان ابتداء دولتهم في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وهي السنة التي بويح فيها السفاح بالخلافة، وقتل فيها مروان الحمار آخر خلفاء بني أمية، وكانت مدة ملكهم خمسمائة سنة وأربعاً وعشرين سنة تقريباً، وعدة خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة.

حكى القاضي جمال الدين بن واصل قال: لقد أخبرني من أثق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ماصورته أن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بلغ بعض خلفاء بني أمية عنه أنه يقول إن الخلافة تصير إلى ولده، فأمر الأموي بعلي بن عبد الله فحمل على جمل وطيف به وضرب، وكان يقال عند ضربه: هذا جزاء من يفترى ويقول إن الخلافة تكون في ولده، فكان علي بن عبد الله المذكور رحمه الله يقول: أي والله لتكونن الخلافة في ولدي، لاتزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم، فوقع مصداق ذلك، وهو ورود هولاءكو وإزالته ملك بني العباس.

ذكر الواقعة بين المغيـث صاحب الكرك وعسكر مصر

كان قد انضمت البحرية إلى المغيـث بن العادل بن الكامل، ونزل من الكرك وخيم بغزة، وجمع الجموع، وسار إلى مصر في دست السلطنة، وخرجت عساكر مصر مع مماليك الملك المعز أيـيك وأكبرهم سيف الدين قطز الذي صار صاحب مصر، والغتمي، وبهادر، والتقى الفريقان فكانت الكسرة على المغيـث ومن معه، فولى منهزما إلى الكرك في أسوأ حال ونهبت أثقاله ودهليزه.

ذكر وفاة الناصر

وفي هذه السنة، أعني سنة ست وخمسين وستائة، في ليلة السبت السادس والعشرين من جمادى الأولى توفي الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، بظاهر دمشق في قرية يقال لها البويضا، ومولده سنة ثلاث وستائة فكان عمره نحو ثلاث وخمسين سنة، وكنا قد ذكرنا أخباره في سنة خمس وخمسين، وأنه توجه إلى تيه بني اسرائيل، وصار مع عرب تلك البلاد، وبلغ المغيـث صاحب الكرك وصوله إلى تلك الجهة فخشي منه، وأرسل إليه فقبض عليه وحمله إلى بلد الشوبك، وأمر بحفر مطمورة ليحبسه فيها، وبقي الملك الناصر المذكور ممسوكا والمطمورة تحفر قدامه ليحبس فيها، فبينما هو على تلك الحال إذ ورد رسول الخليفة المستعصم يطلبه من بغداد لما قصده التتر، ليقدمه على بعض العساكر للقتل، فلما ورد رسول الخليفة إلى دمشق جهزوه إلى المغيـث صاحب الكرك، ووصل الرسول إلى موضع الملك الناصر قبل أن يتم المطمورة، فأخذه وسار به إلى جهة دمشق، فبلغ الرسول استيلاء التتر على بغداد وقتل الخليفة، فتركه الرسول ومضى لشأنه، فسار الناصر داود إلى البويضا، وهي قرية شرقي دمشق، وأقام بها ولحق الناس في الشام في تلك المدة طاعون مات منه الناصر داود

المذكور في التاريخ المذكور، وخرج الملك الناصر يوسف صاحب دمشق إلى البويعضا، وأظهر عليه الحزن والتأسف، ونقله ودفنه بالصالحية في تربة والده المعظم، وكان الناصر داود فاضلاً ناظماً ناثراً، وقرأ العلوم العقلية على الشيخ شمس الدين عبد الحميد الخسرو شاهي، تلميذ الامام فخر الدين الرازي، وللناصر داود المذكور أشعار جيدة قد تقدم بعضها ومن شعره أيضاً:

عيون عن السحر المبين تبين
لها عند تحريك القلوب سكون
تصول بيض وهي سود فرندها
ذبول فتور والجفون جفون
إذا مارات قلباً خلياً من الهوى
تقول له كن مغرم ما فيكون

وله أيضاً:

طرفي وقلبي قاتل وشهيد
ودمي على خديك منه شهود
أما وجبك لست أضمر سلوة
عن صبوتي ودع الفؤاد يبيد
مني بطيفك بعد ما منع الكرى
عن ناظري البعد والتسويد
ومن العجائب أن قلبك لم يلبس
لي والحديد الآن له داود

ومما كتب به في أثناء مكاتبتة إلى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، وكان قد أغارت الفرنج على نابلس في أيام الملك الصالح أيوب صاحب مصر

أياليت أمي أيام طول عمرها
فلم يقضه ربي لمولى ولا يعمل

وياليتها لما قضاها السيد
لييب أريب طيب الفرع والاصل
قضاها من اللاتي خلقن عواقرا
فما بشرت يوماً بأثنى ولا فحل
وياليتها لما غدت بي حاملاً
أصيبت بها احتفت عليه من الحمل
وياليتني لما ولدت وأصبحت
تشد إلى الشدقيات بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم
ولم أرفي إلا سلام ما فيه من خل

ذكر وفاة الصاحبة غازية خاتون والدة الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة في ذي القعدة توفيت الصاحبة غازية خاتون بنت
السلطان الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بقلعة
حماة رحمها الله تعالى، وكان قدومها إلى حماة في سنة تسع وعشرين
وستائة، وولد لها من الملك المظفر محمود صاحب حماة ثلاث بنين، مات
أحدهم صغيراً، وكان اسمه عمر، وبقي الملك المنصور محمد صاحب
حماة وأخوه والد الملك الأفضل علي، وولد لها منه ثلاث بنات أيضاً،
فتوفيت الكبرى منهن، وكان اسمها ملكة خاتون قبل وفاة والدتها
بقليل، وتوفيت الصغرى وهي دنيا خاتون بعد وفاة أخيها الملك المنصور،
وسنذكر وفاة الباقيين في مواضعها إن شاء الله تعالى، وكانت الصاحبة
غازية المذكورة من أحسن النساء سيرة وزهداً وعبادة، وحفظت الملك
لولدها الملك المنصور حتى كبر، وسلمته إليه قبل وفاتها رحمها الله تعالى.

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفي هذه السنة قصدت التتر ميفارقين بعد استيلائهم على بغداد، وكان صاحب ميفارقين حينئذ الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وكان قد ملكها بعد وفاة أبيه في سنة اثنتين وأربعين وستمائة فحاصره التتر وضايقوا ميفارقين مضايقة شديدة، وصبر أهل ميفارقين مع الكامل محمد المذكور على الجوع الشديد، ودام ذلك حتى كان منه مناسنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها اشتد الوباء بالشام خصوصاً بدمشق حتى لم يوجد مغسل للموتى.

وفيها توفي الصاحب بهاء الدين زهير بن محمد بن علي بن يحيى المهلبى، كاتب إنشاء الملك الصالح أيوب، ومولد بهاء الدين زهير بوادي نخلة من مكة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وفي آخر عمره انكشف حاله وباع موجوده وكتبه، وأقام في بيته في القاهرة حتى أدركته وفاته بسبب الوباء العام، في يوم الأحد رابع ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة ست وخمسين وستمائة، ودفن بالقرافة الصغرى، وكان كريم الطباع غزير المروءة فاضلاً، حسن النظم وشعره مشهور كثير، فمن شعره وهو وزن مخترع ليس بخرجة العروض أبيات منها:

يامن لعبت به شمول

ما أطف هذه الشائل

مولاي يحق لي بـأني

عن جـبك في الهوى أقاتل

ها عبدك واقفأذليلاً

بالباب يمدكف سائل

- ١٠٢٨٣ -

من وصلك بالقليل يرضى
والطلل من الحبيب وابسل

وفي هذه السنة توفي بمصر الشيخ ركن الدين عبد العظيم شيخ دار
الحديث، وكان من أئمة الحديث المشهورين.

وفيها توفي الشيخ شمس الدين يوسف سبط جمال الدين بن الجوزي،
وكان من الوعاظ الفضلاء ألف تاريخاً جامعاً سماه مرآة الزمان، وفيها
توفي سيف الدين علي بن سابق الدين قزل، المعروف بابن المشد، وكان
أميراً مقدماً في دولة الملك الناصر يوسف صاحب الشام، وله شعر
حسن فمنه:

بأكر كؤوس المدام واشرب
واستجل وجه الحبيب واطرب
ولا تحف اللهم يوم داء
فهني دواء له مجرب
من يدساق له رضاب
كالشهد لكن جناه أعذب

وفيها كان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصريين، وبين عسكر الملك
الناصر يوسف صاحب دمشق ومقدمهم الأمير مجير الدين بن أبي زكري
مصاف بظاهر غزة، انهزم فيه عسكر الناصر يوسف، وأسر مجير الدين
المذكور، وقوي أمر البحرية بعد هذه الكسرة، وأكثروا العيث والفساد.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة

فيها سار عز الدين كيكاووس، وركن الدين قليج أرسلان ابنا
كيخسرو بن كيقباز إلى خدمة هولاكو، وأقاما معه مدة، ثم عادا.

ذكر وفاة بدر الدين صاحب الموصل

في هذه السنة توفي بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان يلقب الملك الرحيم، وكان عمره قد جاوز ثمانين سنة، ولما مات ملك بعده الموصل ولده الملك الصالح بن لؤلؤ، وملك سنجارولده الآخر علاء الدين بن لؤلؤ، وكان بدر الدين قد صانع هولاكو ودخل في طاعته، وحمل إليه الأموال، ووصل إلى خدمة هولاكو بعد أخذ بغداد ببلاد أذربيجان، وكان صحبة لؤلؤ الشريف العلوي ابن صلابا، فقيل إن لؤلؤ سعى به إلى هولاكو فقتل الشريف المذكور، ولما عاد لؤلؤ إلى الموصل لم يطل مقامه بها حتى مات، وطالت أيام بدر الدين لؤلؤ في ملك الموصل، فإنه كان القائم بأمر استاذه أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن أقسنقر، وقام بتدبير ولده الملك القاهر بن أرسلان شاه، ولما توفي الملك القاهر بن أرسلان شاه في سنة خمس عشرة وستمائة انفرد لؤلؤ بتدبير المملكة، وأقام ولدي القاهر الصغيرين واحداً بعد واحد، واستبد بملك الموصل وبلادها ثلاثاً وأربعين سنة تقريباً، ولم يزل في ملكه سعيداً لم تطرقه آفة، ولم يختل ملكه نظام.

ذكر منازة الملك الناصر يوسف صاحب الشام الكرك

في هذه السنة لما جرى من البحرية ما ذكرناه من كسر عسكر الناصر يوسف، سار الناصر المذكور من دمشق بنفسه وعساكره، وسار في صحبته الملك المنصور صاحب حماة بعسكره إلى جهة الكرك، وأقام على بركة زيزاء محاصراً للملك المغيث صاحب الكرك بسبب حمايته للبحرية، ووصل إلى الملك الناصر رسل الملك المغيث صاحب الكرك والقبطية بنت الملك المفضل قطب الدين ابن الملك العادل، يتضرعون

إلى الملك الناصر ويطلبون رضاه عن الملك المغيث، فلم يجب إلى ذلك إلا بشرط أن يقبض المغيث على من عنده من البحرية، فأجاب المغيث إلى ذلك، وعلم بالحال ركن الدين بيبرس البندقداري فهرب في جماعة من البحرية، ووصل بهم إلى الملك الناصر يوسف فأحسن إليهم، وقبض المغيث على من بقي عنده من البحرية، ومن جملتهم سنقر الأشقر وتنكز، وبرامق، وأرسلهم على الجمال إلى الملك الناصر، فبعث بهم إلى حلب فاعتقلوا بها، واستقر الصلح بين الملك الناصر وبين الملك المغيث صاحب الكرك، وكانت مدة مقام الملك الناصر بالعساكر على بركة زيزاء ما يزيد على شهرين بقليل، ثم عاد إلى دمشق، وأعطى للملك المنصور صاحب حماة دستوراً فعاد إلى بلده.

ذكر سلطنة قطز

وفي أواخر هذه السنة أعني سنة سبع وخمسين وستائة في أوائل ذي الحجة قبض سيف الدين قطز على ولد استاذه الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك، وخلعه من السلطنة، وكان علم الدين الغتمي، وسيف الدين بهادر، وهما من كبار المعزية غائبين في رمي البندق، فانتهاز الفرصة في غيبتهما، وفعل ذلك، ولما قدم الغتمي وبهادر المذكوران قبض عليهما قطز أيضاً، واستقر قطز في ملك الديار المصرية، وتلقب بالملك المظفر، وكان رسول الملك الناصر يوسف صاحب الشام، وهو كمال الدين المعروف بابن العديم قد قدم إلى مصر في أيام الملك المنصور علي ابن أيبك مستنجداً على التتر، واتفق خلع علي المذكور وولاية قطز بحضرة كمال الدين بن العديم، ولما استقر قطز في السلطنة أعاد جواب الملك الناصر يوسف انه ينجده ولا يقعد عن نصرته، وعاد ابن العديم بذلك.

ذكر مولد الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور صاحب حماة

وفي هذه السنة أعني سنة سبع وخمسين وستمائة، في الساعة العاشرة من ليلة الأحد خامس عشر المحرم، وثاني عشر كانون الثاني، ولد محمود ابن الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر محمود ابن الملك المنصور محمد ابن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، ولقبوه الملك المظفر، بلقب جده، وأم الملك المظفر محمود المذكور عائشة خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهنأ الشيخ شرف الدين عبد العزيز المعروف بشيخ

الشيخ الملك المنصور صاحب حماة بقصيدة طويلة منها

ابشر على رغم العدى والحسد

بأجل مولود وأكرم مولود

بالنعمة الغراء بل بالدولة الزهـ

راء بل بالمفخر المتجدد

وافاك بدرا كاملا في ليلة

طلعت عليك نجومها بالأسعد

ما بين محمود المظفر أسفرت

عنه وما بين العزيز محمد

ذكر قصد هولاءكو الشام

وفي هذه السنة قدم هولاءكو إلى البلاد التي شرقي الفرات، ونازل حران وملكها، واستولى على البلاد الجزرية، وأرسل ولده شموط بن هولاءكو إلى الشام، فوصل إلى ظاهر حلب في العشر الأخير من ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة سبع وخمسين وستمائة، وكان الحاكم

في حلب الملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين نايبا عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف، فخرج عسكر حلب لقتالهم، وخرج الملك المعظم، ولم يكن من رأيه الخروج إليهم، وأكمن لهم التتر في بابي المعروف بباب الله وتقاتلوا عند بانقوسا، فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد، ثم عادوا عليهم، وهرب المسلمون طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد، واختنق في أبواب البلد جماعة من المنهزمين، ثم رحل التتر إلى اعزاز فتسلموها بالأمان.

ذكر ما كان من الملك الناصر عند قصد التتر حلب

ولما بلغ الملك الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتر حلب، برز من دمشق إلى برزه في أواخر السنة الماضية، وجفل الناس من بين يدي التتر، وسار من حماة إلى دمشق الملك المنصور صاحب حماة، ونزل معه ببرزه، وكان هناك مع الناصر يوسف بيبرس البندقداري من حين هرب من الكرك، والتجأ إلى الناصر، فاجتمع عند الملك الناصر عند برزه أمم عظيمة من العساكر والجفال، ولما دخلت هذه السنة والملك الناصر ببرزه، بلغه أن جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله والفتك به، فهرب الملك الناصر من الدهليز إلى قلعة دمشق، وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا على حمية إلى جهة غزة، وكذلك سار بيبرس البندقداري إلى جهة غزة، وأشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الملك الناصر، وإنما كان قصدهم أن يقبضوا عليه ويسلطوا أخاه الملك الظاهر غازي ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين لشهامته، ولما جرى ذلك هرب الملك الظاهر المذكور خوفا من أخيه الملك الناصر، وكان الظاهر المذكور شقيق الناصر، أمهما أم ولد تركية، ووصل الملك الظاهر غازي إلى غزة، واجتمع عليه من بها من العسكر وأقاموه سلطانا، ولما جرى ذلك كاتب بيبرس البندقداري الملك المظفر قطز صاحب مصر، فبذل له الأمان ووعدته

الوعود الجميلة، ففارق بيبرس البندقداري الشاميين، وسار إلى مصر في جماعة من أصحابه، فأقبل عليه الملك المظفر قطز، وأنزله في دار الوزارة، وأقطعه قليوب وأعمالها.

ذكر استيلاء التتر على حلب وعلى الشام جميعه ومسير الملك الناصر عن دمشق ووصول عساكره إلى مصر وانفراد الملك الناصر عنهم

في هذه السنة أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة، في يوم الأحد تاسع صفر كان استيلاء التتر على حلب، وسببه أن هولاءكو عبر الفرات بجموعه، ونازل حلب وأرسل هولاءكو إلى الملك المعظم تورانشاه بن صلاح الدين نائب السلطنة بحلب يقول له: إنكم تضعفون عن لقاء المغل، ونحن قصدنا الملك الناصر، والعساكر فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة، ونتوجه نحن إلى العسكر، فإن كانت الكسرة على عسكر الاسلام كانت البلاد لنا وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين، وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين إن شئتم طردتموهما، وإن شئتم قتلتموهما، فلم يجب الملك المعظم إلى ذلك، وقال: ليس لكم عندنا إلا السيف، وكان رسول هولاءكو إليهم في ذلك صاحب أرزن الروم، فتعجب من هذا الجواب وتألّم لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك، وأحاط التتر بحلب ثاني صفر وهجموا النواثر في غد ذلك اليوم، وقتل من المسلمين جماعة كثيرة، وممن قتل أسد الدين ابن الملك الزاهر بن صلاح الدين، واشتدت مضايقة التتر للبلد وهجموه من عند حمام حمدان في ذيل قلعة الشريف في يوم الأحد تاسع صفر، وبدلوا السيف في المسلمين، وصعد إلى القلعة خلق عظيم، ودام القتل والنهب من نهار الأحد المذكور إلى الجمعة رابع عشر صفر المذكور، فأمر هولاءكو برفع السيف، ونودي بالأمان، ولم يسلم من أهل حلب إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين ابن عمرون، ودار نجم الدين أخي مردكين،

ودار البازيار، ودار علم الدين قيصر الموصلبي، والخانكاه التي فيها زين الدين الصوفي، وكنيسة اليهود، وذلك لفرمانات كانت بأيديهم، وقيل أنه سلم بهذه الاماكن مايزيد على خمسين ألف نفس، ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها الملك المعظم ومن التجأ اليها من العسكر، واستمر الحصار عليها وكان من ذلك ماسنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك من أحوال حماة وأحوال الملك الناصر بعد أخذ حلب

كان قد تأخر بحماة الطواشي مرشد، لما سار صاحب حماة إلى دمشق، فلما بلغ أهل حماة فتح حلب توجه الطواشي مرشد من حماة إلى عند الملك المنصور صاحب حماة بدمشق، ووصل كبراء حماة إلى حلب ومعهم مفاتيح حماة وحملوها إلى هولاكو، وطلبوا منه الأمان لأهل حماة وشحنة يكون عندهم، فأمنهم هولاكو، وأرسل إلى حماة شحنة رجلاً أعجمياً كان يدعي أنه من ذرية خالد بن الوليد، يقال له خسرو شاه، فقدم خسرو شاه إلى حماة وتولاها وأمن الرعية، وكان بقلعة حماة مجاهد الدين قيباز أمير جندار، فسلم القلعة إليه ودخل في طاعة التتر، ولما بلغ الملك الناصر بدمشق أخذ حلب رحل من دمشق بمن بقي معه من العسكر إلى جهة الديار المصرية، وفي صحبته الملك المنصور صاحب حماة، وأقام بنابلس أياماً، ورحل عنها وترك فيها الأمير مجير الدين بن أبي زكري، والأمير علي بن شجاع، ومعهما جماعة من العسكر، ثم سار الملك الناصر إلى غزة فانضم إليه مماليكه الذين كانوا أرادوا قتله، وكذلك اصطالح معه أخوه الملك الظاهر غازي، وانضم إليه، وبعد مسير الملك الناصر عن نابلس وصل التتر إليها وكبسوا العسكر الذين بها، وقتلوا مجير الدين والأمير علي بن شجاع، وكانا أميرين جليلين فاضلين، وكان

البحرية قد قبضوا عليها واعتقلوها بالكرك وأفرج عنها المغيث لما وقع الصلح بينه وبين الناصر، ولما بلغ الملك الناصر وهو بغزة ماجرى من كبسة التتر لنابلس رحل من غزة إلى العريش، وسير القاضي برهان الدين ابن الخضر رسولا إلى الملك المظفر صاحب مصر يطلب منه المعاوضة، ثم سار الملك الناصر، والملك المنصور صاحب حماة، والعسكر ووصلوا إلى قطية، فجرى بها فتنة بين التركمان والأكراد الشهرزورية، ووقع نهب في الجفال، وخاف الملك الناصر أن يدخل مصر فيقبض عليه، فتأخر في قطية، ورحلت العساكر والملك المنصور صاحب حماة إلى مصر، وتأخر مع الملك الناصر جماعة يسيرة منهم أخوه الظاهر غازي، والملك الصالح بن شيركوه صاحب حمص، وشهاب الدين القيمي، ثم سار الملك بمن معه من قطية إلى جهة تيه بني اسرائيل، ولما وصلت العساكر إلى مصر التقاهم الملك المظفر قطز بالصاحية وطيب قلوبهم، وأرسل إلى الملك المنصور صاحب حماة سنجقاً وأتقاه ملتقى حسنا، وطيب قلبه ودخل القاهرة، وأما التتر فانهم استولوا على دمشق، وعلى سائر الشام إلى غزة، واستقرت شحائنهم بهذه البلاد.

ذكر استيلاء التتر على قلعة حلب والمتجددات بالشام

أما قلعة حلب فوثب جماعة من أهلها في مدة الحصار على صفى الدين بن طرزه رئيس حلب، وعلى نجم الدين أحمد بن عبد العزيز بن أحمد ابن القاضي نجم الدين بن أبي عصرون فقتلوهما، لأنهم اتهموهما بمواطأة التتر، واستمر الحصار على القلعة، واشتدت مضايقة التتر لها نحو شهر، ثم سلمت بالأمان في يوم الاثنين الحادي عشر من ربيع الأول من هذه السنة، ولما نزل أهلها بالأمان، وكان فيها جماعة من البحرية الذين حبسهم الملك الناصر فمنهم تنكز، وبرامق، وسنقر

الأشقر، فسلمهم هولأكو هم وبأقي الترك إلى رجل من التتر يقال له سلطان حق، وهو رجل من أكابر القبجاق هرب من التتر لما غلبت على القبجاق، وقدم إلى حلب فأحسن إليه الملك الناصر، فلم تطب له تلك البلاد، فعاد إلى التتر، وأما العوام والغرباء فنزلوا إلى أماكن الحمى التي قدمنا ذكرها، وأمر هولأكو أن يمضي كل من سلم إلى داره وملكه وأن لا يعارض، وجعل النائب بحلب عماد الدين القزويني، ووصل إلى هولأكو على حلب الملك الأشرف صاحب حمص موسى بن إبراهيم شيركوه، وكان قد انفرد الأشرف المذكور عن المسلمين لما توجه الملك الناصر إلى جهة مصر، ووصل إلى هولأكو بحلب فأكرمه هولأكو، وأعاد عليه حمص، وكان قد أخذها منه الملك الناصر صاحب حلب في سنة ست وأربعين وستمائة وعضه عنها تل باشر على ماتقدم ذكره، فعادت إليه في هذه السنة، واستقر ملكه بها، وقدم أيضا إلى هولأكو وهو نازل على حلب محيي الدين بن الزكي من دمشق، فأقبل عليه هولأكو، وخلع عليه وولاه قضاء الشام، ولما عاد ابن الزكي المذكور إلى دمشق لبس خلعة هولأكو، وكانت مذهبة وجمع الفقهاء وغيرهم من أكابر دمشق وقرأ عليهم تقليد هولأكو، واستقر في القضاء، ثم رحل هولأكو إلى حارم وطلب تسليمها فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين والي قلعة حلب، فأحضره هولأكو وسلموها إليه فغضب هولأكو من ذلك وأمر بهم فقتل أهل حارم عن آخرهم، وسبى النساء، ثم رحل هولأكو بعد ذلك وعاد إلى الشرق، وأمر عماد الدين القزويني بالرحيل إلى بغداد فسار إليها وجعل مكانه بحلب رجلا أعجميا، وأمر هولأكو بخراب أسوار قلعة حلب، وأسوار المدينة فخربت عن آخرها، وأعطى هولأكو الأشرف موسى صاحب حمص الدستور ففارقه ووصل إلى حماة ونزل في دار البارز، وأخذ في خراب سور قلعة حماة بتقدم هولأكو إليه بذلك، فخربت أسوارها وأحرقت زردخانتها، وبيعت الكتب التي كانت بدار السلطنة بقلعة حماة بأبخس الأثمان، وأما أسوار مدينة حماة فلم تحرب لأنه كان بحماة رجل

يقال له ابراهيم بن الافرنجية ضامن الجهة المفردة بذل لخسروشاه جملة كثيرة من المال وقال الفرنج قريب منا بحصن الأكراد ومتى خربت أسوار المدينة لا يقدر أهلها على المقام فيها، فأخذ منه المال ولم يتعرض لخراب أسوار المدينة، وكان قد أمر هولاءكو الأشرف موسى صاحب حمص بخراب قلعة حمص أيضاً فلم يخرب منها إلا شيئاً قليلاً لأنها مدينته، وأما دمشق فانهم لما ملكوا المدينة بالامان لم يتعرضوا إلى قتل ولا نهب، وعصت قلعة دمشق عليهم فحاصرها التتر، وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة، وضايقوا القلعة وأقاموا عليها المجانيق ثم تسلموها بالامان في منتصف جمادى الأولى من هذه السنة، ونهبوا جميع ما فيها وجدوا في خراب أسوار القلعة وإعدام ما بها من الزردخانات، والآلات، ثم توجهوا إلى بعلبك ونازلوا قلعتها.

ذكر استيلاء التتر على ميفارقين وقتل الملك الكامل صاحبها

وفي هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستائة استولى التتر على ميفارقين، وقد تقدم ذكر نزولهم عليها ومحاصرتها في سنة ست وخمسين، واستمر الحصار عليهم مدة سنتين حتى فنيت أزوادهم، وفني أهلها بالوباء وبالقنط، وصاحبها الملك الكامل محمد ابن الملك المظفر شهاب الدين غازي ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مصابراً ثابتاً، وضعف من عنده عن القتال فاستولى التتر عليها، وقتلوا صاحبها الملك الكامل المذكور، وحملوا رأسه على رمح وطيف به في البلاد، ومروا به على حلب وحماة، ووصلوا به إلى دمشق في سابع عشرين جمادى الأولى من هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستائة، وطافوا به في دمشق بالمغاني والطبول، وعلق رأس المذكور في شبكة بسور باب الفراديس إلى أن

عادت دمشق إلى المسلمين، فدفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس،
وفيه يقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة أبياتاً منها:

ابن غازي غزا وجاهد قوما

أثخنوا في العراق والمشرقين

طاهر أعالي ومات شهيداً

بعد صبر عليهم عامين

لم يشنه إذ طيف بالأس منه

ولله أسوة برأس الحسين

ثم واروا في مشهد الرأس ذاك

الرأس واستعجبوا من الحالين

ذكر اتصال الملك الناصر بالتر واستيلائهم على عجلون

وغيرها من قلاع الشام

أما الملك الناصر يوسف فإنه لما انفرد عن العسكر من قطية، وسار
إلى تيه بني اسرائيل، بقي متحيراً إلى أين يتوجه، وعزم على التوجه إلى
الحجاز، وكان له طبر دار كردي اسمه حسين، فحسن له المضي إلى التتر،
وقصد هولاء فاعتر بقوله ونزل ببركة زيزاء وسار حسين الكردي إلى
كتبغا نائب هولاء، وعرفه بموضع الملك الناصر، فأرسل كتبغا إليه
وقبض عليه وأحضره إلى عجلون، وكانت بعد عاصية، فأمرهم الملك
الناصر بتسليمها فسلمت إليهم فهدموها، وكنا قد ذكرنا حصار التتر
لبعلبك فتسلموها قبيل تسليم عجلون وخربوا قلعتها أيضاً، وكان
بالصبيبة صاحبها الملك السعيد ابن الملك العزيز ابن الملك العادل فسلم
الصبيبة إليهم، وصار الملك السعيد المذكور معهم، وأعلن بالفسق
والفجور وسفك دماء المسلمين، وأما الملك الناصر يوسف فان كتبغا

بعث به إلى هولواكو، فوصل إلى دمشق ثم إلى حماة وبها الأشرف صاحب حمص، فخرج إلى لقائه هو وخسروشاه النائب بحماة، ثم سار إلى حلب فلما عاينها الملك الناصر وما قد حل بها وبأهلها تضاعف تألمه وأنشد:

يعز علينا أن نرى ربيعكم يبلى
وكانت به آيات حسنكم تتلى

ثم سار إلى الاردو فأقبل عليه هولواكو، ووعد برده إلى مملكته، وكان منه ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر غير ذلك

وفي خامس عشر شعبان من هذه السنة أخرج التتر من الاعتقال نقيب قلعة دمشق وواليتها، وضربوا أعناقها بداريا، واشتهر عند أهل دمشق خروج العساكر من مصر لقتال التتر، فأوقعوا بالنصارى، وكانوا قد استطالوا على المسلمين بدق النواقيس وإدخال الخمر إلى الجامع، فنهبهم المسلمون في سابع عشرين رمضان من هذه السنة، وأخربوا كنيسة مريم، وكانت كنيسة عظيمة، وكانت كنيسة مريم في جانب دمشق الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف فبقيت بيد المسلمين، وكان ملاصق الجامع كنيسة وهي من الجانب الذي فتحه أبو عبيدة بالامان فبقيت بأيدي النصارى، فلما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة خرب الكنيسة الملاصقة للجامع وأضافها إليه، ولم يعوض النصارى عنها، فلما ولي عمر بن عبد العزيز عوضهم بكنيسة مريم عن تلك الكنيسة، فعمروها عمارة عظيمة، وبقيت كذلك حتى خربها المسلمون في التاريخ المذكور.

ذكر هزيمة التتر وقتل كتبغا

وفي هذه السنة أعني سنة ثمان وخمسين وستائة كانت هزيمة التتر في يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان على عين جالوت، وكان من حديثها أنه لما اجتمعت العساكر الإسلامية بمصر، عزم الملك المظفر قطز مملوك المعز أيك على الخروج إلى الشام لقتال التتر، وسار من مصر بالعساكر الإسلامية، وصحبته الملك المنصور محمد صاحب حماة، وأخوه الملك الأفضل علي، وكان مسيره من الديار المصرية في أوائل رمضان من هذه السنة، ولما بلغ كتبغا وهو نائب هولاء على الشام ومقدم التتر، مسير العساكر الإسلامية إليه صحبة الملك المظفر قطز جمع من في الشام من التتر، وسار إلى لقاء المسلمين، وكان الملك السعيد صاحب الصببية ابن الملك العزيز ابن الملك العادل بن أيوب صحبة كتبغا، وتقارب الجمعان في الغور والتقوا يوم الجمعة المذكور، فانهزمت التتر هزيمة قبيحة، وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا واستؤسر ابنه، وتعلق من سلم من التتر برؤوس الجبال، وتبعهم المسلمون فأفنوهم، وهرب من سلم منهم إلى الشرق، وجرى قطز ركن الدين بيبرس البندقداري في إثرهم فتبعهم المسلمون إلى أطراف البلاد الشرقية، وكان أيضا في صحبة التتر الملك الأشرف موسى صاحب حمص، ففارقهم وطلب الأمان من المظفر قطز فأمنه، ووصل إليه فأكرمه وأقره على ما بيده وهو حمص ومضافاتها، وأما الملك السعيد صاحب الصببية فإنه أمسك أسيراً، وأحضره بين يدي الملك المظفر قطز، فأمر به فضربت عنقه بسبب ما كان المذكور قد اعتمده من السفك والفسق، ولما انقضى أمر المصاف أحسن المظفر قطز إلى الملك المنصور صاحب حماة وأقره على حماة وبارين وأعاد إليه المعرة، وكانت في أيدي الحلبيين من حين استولوا عليها في سنة خمس وثلاثين وستائة، وأخذ سلمية منه وأعطاه أمير العرب، وأتم الملك المظفر السير بالعساكر وصحبته الملك المنصور صاحب حماة حتى دخل دمشق، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على

هذا النصر العظيم فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام، ولأنهم ما قصدوا إقليا إلا فتحوه ولا عسكريا إلا هزموه، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم، وبقدوم الملك المظفر قطز إلى الشام، وفي يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتر فشنقوا، وكان من جملتهم حسين الكردي طبردار الملك الناصر يوسف، وهو الذي أوقع الملك الناصر في أيدي التتر وفي هذه النصرة وقدم قطز إلى الشام يقول بعض الشعراء:

هلك الكفر في الشام جميعا
واستجد الاسلام بعدد حوضه
بالمليك المظفر الملك ار
وع سيف الاسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم
فاعتززنا باسمه وببيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا
دائما مثل واجبات فروضه

ثم أعطى الملك المظفر قطز صاحب حماة الملك المنصور الدستور، فقدم الملك المنصور قدامه مملوكه ونائبه مبارز الدين أقوش المنصوري إلى حماة، ثم سار الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل ووصلا إلى حماة، ولما استقر الملك المنصور بحماة قبض على جماعة كانوا مع التتر واعتقلهم.....

وكان خسرو شاه قد سافر من حماة إلى جهة الشرق، لما بلغه كسرة التتر، ثم جهز الملك المظفر قطز عسكرياً إلى حلب لحفظها، ورتب أيضا شمس الدين أقوش البرلي العزيزي أميراً بالسواحل وغزة، ورتب معه جماعة من العزيزية، وكان البرلي المذكور من مماليك الملك العزيز محمد صاحب حلب، وسار في جملة العزيزية مع ولده المليك الناصر يوسف إلى قتال المصريين، وخامر البرلي وجماعة من العزيزية على ابن أستاذهم

الملك الناصر وصاروا مع أيبك التركماني صاحب مصر، ثم إنهم قصدوا اغتيال المعز أيبك التركماني المذكور، وعلم بهم فقبض على بعضهم، وهرب بعضهم، وكان البرلي المذكور من جملة من سلم وهرب إلى الشام فلما وصل إلى الملك الناصر اعتقله بقلعة عجلون، فلما توجه الملك الناصر بالعسكر إلى الغور مندفعاً من بين يدي التتر أخرج البرلي من حبس عجلون، وطيب خاطره، فلما هرب الملك الناصر من قطية دخل شمس الدين أقوش البرلي المذكور مع العساكر إلى مصر، فأحسن إليه الملك المظفر قطز وولاه الآن السواحل وغزة، فلما استقر بدمشق على ما ذكرناه، وكان مقر البرلي لما تولى هذه الأعمال بنابلس تارة، وبيت جبرين أخرى، ثم إن الملك المظفر قطز فوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبي، وهو الذي كان أتابكا لعلي بن المعز أيبك، وفوض نيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وكان المذكور قد وصل إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام، ودخل مع العساكر إلى مصر، وصار مع المظفر قطز ففوض إليه نيابة السلطنة بحلب، وكان سببه أن أخاه الملك الصالح بن لؤلؤ قد صار صاحب الموصل بعد أبيه، فولاه حلب ليكاتبه أخوه بأخبار التتر، ولما استقر السعيد المذكور في نيابة حلب سار سيرة رديئة، وكان دابة التحيل على أخذ مال الرعية.

ذكر عود الملك المظفر قطز إلى جهة الديار المصرية ومقتله

ولما قرر الملك المظفر قطز المعزي المذكور أمر الشام على ما شرحناه، سار من دمشق إلى جهة البلاد المصرية وكان قد اتفق ببيرس البندقداري الصالحي مع أنص مملوك نجم الدين الرومي الصالحي، والهاروني، وعلم الدين صغن أغلي على قتل المظفر قطز، وساروا معه يتوقعون الفرصة، فلما

وصل قطز إلى القصير بطرف الرمل، وبينه وبين الصالحية مرحلة وقد سبق الدهليز والعسكر إلى الصالحية، فبينا قطز يسير إذ قامت أرنب بين يديه فساق عليها، وساق هؤلاء المذكورين معه فلما بعدوا، تقدم إليه أنص وشفع عند الملك المظفر قطز في إنسان فأجابه إلى ذلك فأهوى لتقبيل يده، وقبض عليها فحمل عليه بيبرس البندقداري الصالحى حينئذ وضربه بالسيف، واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه، ثم قتلوه بالنشاب وذلك في سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة، فكانت مدة ملكه أحد عشر شهراً، وثلاثة عشر يوماً، وساق بيبرس وأولئك المذكورون بعد مقتله حتى وصلوا إلى الدهليز بالصالحية.

ذكر سلطنة بيبرس البندقداري

ولما وصل ركن الدين بيبرس المذكور هو والجماعة الذين قتلوا الملك المظفر قطز إلى الدهليز كما ذكرنا، وكان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين أقطاي المستعرب، وهو الذي صار أتابكا لعلي بن المعز أيك بعد الحلبي، فلما تسلطن قطز أقره على نيابة السلطنة، فلما وصل بيبرس البندقداري مع الجماعة الذين قتلوا قطز إلى الدهليز، سألم أقطاي المستعرب المذكور، وقال: من قتله منكم؟ فقال له بيبرس: أنا، قال له أقطاي: ياخوند اجلس في مرتبة السلطنة، فجلس واستدعيت العساكر للتحليف، فحلفوا له في اليوم الذي قتل فيه قطز، وهو سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستائة، واستقر بيبرس في السلطنة وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى، ثم بعد ذلك غير لقبه عن الملك القاهر، وتلقب بالملك الظاهر لأنه بلغه أن القاهر لقب غير مبارك ماتلقب به أحد فطالت مدته، وكان الملك الظاهر المذكور قد سأل من قطز النيابة بحلب فلم يجبه إليها، ليكون ما قدره الله تعالى، ولما حلف الناس للملك الظاهر المذكور بالصالحية، ساق في جماعة من أصحابه وسبق العسكر إلى قلعة

الجليل، ففتحت له، ودخلها واستقرت قدمه في المملكة، وكان قد زينت مصر والقاهرة لمقدم قطز، فاستمرت الزينة لسلطنة بيبرس المذكور، وكان مقتل قطز وسلطنة بيبرس في سابع عشر ذي القعدة من هذه السنة.

ذكر إعادة عمارة قلعة دمشق

وفي هذه السنة في العشر الأخير من ذي القعدة، شرع الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب السلطنة بدمشق في عمارة قلعة دمشق، وجمع لها الصناع، وكبراء الدولة، والناس وعملوا فيها حتى النساء أيضا، وكان عند الناس بذلك سرور عظيم.

ذكر سلطنة الحلبي بدمشق

كان علم الدين سنجر الحلبي قد استنابه الملك المظفر قطز بدمشق على ماتقدم ذكره، فلما جرى ما ذكرناه من قتل قطز وسلطنة الملك الظاهر، جمع الحلبي الناس وحلفهم لنفسه بالسلطنة، وذلك في العشر الأول من ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة، فأجابه الناس إلى ذلك، وحلفوا له، ولم يتأخر عنه أحد، ولقب نفسه الملك المجاهد، وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه، وكاتب الملك المنصور صاحب حماة في ذلك فلم يجبه، وقال صاحب حماة: أنا مع من يملك الديار المصرية كائنا من كان.

ذكر قبض عسكر حلب على الملك السعيد ابن صاحب الموصل وعودة التتر إلى الشام

وكان الملك السعيد قد قرره قطز بحلب وجرده معه جماعة من العزيزية والناصرية، وكان رديء السيرة، وقد أبغضه العسكر، وبلغ الملك السعيد المذكور مسير التتر إلى البيرة، فجرد إلى جهتهم جماعة قليلة من العسكر وقدم عليهم سابق الدين أمير مجلس الناصري، فأشار عليه كبراء العزيزية والناصرية بأن هذا ماهو مصلحة وأن هؤلاء قليلون فيحصل الطمع بسببهم في البلاد، فلم يلتفت إلى ذلك، وأصر على مسيرهم، فسار سابق الدين أمير مجلس الناصري بمن معه حتى قاربوا البيرة، فوقع عليهم التتر فهرب منهم ودخل البيرة بعد أن قتل غالب من كان معه فازداد غيظ الأمراء على الملك السعيد بسبب ذلك، فاجتمعوا وقبضوا عليه ونهبوا وطاقه، وكان قد برز إلى بابي المعروف باب الله، ولما استولوا على خزانته لم يجدوا فيها مالا طائلا فهددوه بالعذاب إن لم يقر لهم بما له فنبش من تحت أشجار حائط دار بابي جملة من المال قيل كانت خمسين ألف دينار مصرية، ففرقت في الأمراء وحمل الملك السعيد المذكور إلى الشغروبكاس معتقلا، ثم لما اندفع العسكر من بين يدي التتر على ما سنذكره أفرجوا عنه، ولما جرى ذلك انفتقت العزيزية والناصرية وقدموا عليهم الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزي، ثم سارت التتر إلى حلب، فاندفع حسام الدين الجوكندار والعسكر الذين معه بين أيديهم إلى جهة حماة، ووصل التتر إلى حلب في أواخر هذه السنة، أعني سنة ثمان وخمسين وستمائة، وملكوها وأخرجوا أهلها إلى قرينيا واسمها مقر الأنبياء، فساها العامة قرينيا، ولما اجتمع المسلمون بقرينيا بذل التتر فيهم السيف فأفنوا غالبهم، وسلم القليل منهم، ووصل حسام الدين الجوكندار، ومن معه إلى حماة فضيفهم الملك المنصور محمد صاحب حماة، وهو مستشعر خائف من غدرهم، ثم رحلوا من حماة إلى حمص، فلما قارب التتر حماة خرج منها الملك المنصور صاحبها وصحبته أخوه

الملك الأفضل علي، والأمير مبارز الدين وباقي العسكر، واجتمعوا بحمص مع باقي العساكر إلى أن خرجت هذه السنة.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمائة

ذكر كسرة التتر بحمص

وفي يوم الجمعة خامس المحرم من هذه السنة كانت كسرة التتر على حمص، وكان من حديثها أن التتر لما قدموا في آخر السنة الماضية إلى الشام اندفعت العزيزية والناصرية من بين أيديهم، وكذلك الملك المنصور صاحب حماة، ووصلوا إلى حمص، واجتمع بهم الملك الأشرف صاحب حمص، ووقع اتفاقهم على ملتقى التتر، وسار التتر إليهم، والتقوا بظاهر حمص في نهار الجمعة المذكور، وكان التتر أكثر من المسلمين بكثير، ففتح الله تعالى على المسلمين بالنصر، وولى التتر منهزمين، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم كيف شاءوا، ووصل الملك المنصور إلى حماة بعد هذه الواقعة، وانضم من سلم من التتر إلى باقي جماعتهم وكانوا نازلين قرب سلمية، واجتمعوا ونزلوا على حماة، وبها صاحبها الملك المنصور، وأخوه الملك الأفضل والعسكر، وأقام التتر على حماة يوماً واحداً، ثم رحلوا عن حماة، وأراد الملك المنصور بعد رحيل التتر المسير إلى دمشق فمنعه العامة حتى استوثقوا منه أنه يعود إليهم عن قريب، فسافر هو وأخوه الملك الأفضل في جماعة قليلة، وبقي الطواشي مرشد صاحب العسكر بحماة، ووصل المنصور بمن معه إلى دمشق، وكذلك توجه الملك الأشرف صاحب حمص إلى دمشق، وأما حسام الدين الجوكندار العزيزي فتوجه أيضاً بمن في صحبته، ولم يدخل دمشق، ونزل بالمرج، ثم سار إلى مصر، وأقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق في

دورهما، والحاكم بها يومئذ سنجر الحلبي الملقب بالسلطان المجاهد، وقد اضطرب أمره ولذلك أقام صاحب حماة وصاحب حمص بدمشق ولم يدخلوا في طاعته لضعفه وتلاشي أمره، وأما التتر فساروا عن حماة إلى فامية، وكان قد وصل إلى فامية سيف الدين الدنبلي الأشرفي، ومعه جماعة، فأقام بقلعة فامية، وبقي يغير على التتر، فرحلوا عن فامية وتوجهوا إلى الشرق.

ذكر القبض على سنجر الحلبي الملقب الملك المجاهد

وفي هذه السنة جهز الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر عسكرياً مع علاء الدين البندقدار، وهو أستاذ الملك الظاهر لقتال علم الدين سنجر الحلبي المستولي على دمشق، فوصلوا إلى دمشق في ثالث عشر صفر من هذه السنة، ولما وصل عسكري مصر إلى دمشق خرج إليهم الحلبي لقتالهم، وكان صاحب حماة وصاحب حمص مقيمين بدمشق ولم يخرجوا مع الحلبي لقتالهم ولا أطاعاه لاضطراب أمر الحلبي، واقتتل معهم بظاهر دمشق في ثالث عشر صفر من هذه السنة، أعني سنة تسع وخمسين وستمائة، فولى الحلبي وأصحابه منهزمين ودخل إلى قلعة دمشق إلى أن جنه الليل، فهرب من قلعة دمشق إلى جهة بعلبك فتبعه العسكري وقبضوا عليه، وحمل إلى الديار المصرية، فاعتقل ثم أطلق واستقرت دمشق في ملك الظاهر بيبرس، وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشام، مثل: حماة، وحلب، وحمص، وغيرها واستقر أيدي البندقدار الصالح في دمشق لتدبير أمورها، ولما استقر الحال على ذلك، رحل الملك المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص، وعادا إلى بلادهما واستقرا بها.

ذكر خروج البري عن طاعة الملك الظاهر بيبرس واستيلائه على حلب

وفي هذه السنة بعد استقرار علاء الدين ايدكين البندقدار في دمشق، ورد عليه مرسوم الملك الظاهر بيبرس بالقبض على بهاء الدين بغدي الأشرفي، وعلى شمس الدين أقوش البري وغيرهما من العزيزية والناصرية، وبقي علاء الدين ايدكين متوقفاً ذلك، فتوجه بغدي إلى علاء الدين ايدكين فحال دخوله عليه قبض على بغدي المذكور، فاجتمعت العزيزية والناصرية إلى أقوش البري، وخرجوا من دمشق ليلاً على حمية، ونزلوا بالمرج، وكان أقوش البري قد ولاه المظفر غزة، والسواحل على ما قدمنا ذكره، فلما جهز الملك الظاهر البندقدار إلى قتال الحلبي، أرسل إلى البري وأمره أن ينضم إليه، فسار البري مع البندقدار، وأقام بدمشق فلما قبض على بغدي خرج البري إلى المرج، وأرسل علاء الدين ايدكين البندقدار إلى البري يطيب قلبه، ويحلف له، فلم يلتفت إلى ذلك، وسار إلى حمص، وطلب من صاحبها الأشرف موسى أن يوافقه على العصيان، فلم يجبه إلى ذلك، ثم توجه إلى حماة، وأرسل يقول للملك المنصور صاحب حماة: إنه لم يبق من البيت الأيوبي غيرك، وقم لنصير معك ونملكك البلاد، فلم يلتفت الملك المنصور إلى ذلك ورده رداً قبيحاً، فاغتاظ البري ونزل على حماة وأحرق زرع بيدر العشر، وسار إلى شيزر، ثم إلى جهة حلب، وكان علاء الدين ايدكين البندقدار لما استقر بدمشق، قد جهز عسكرياً صحبة فخر الدين الحمصي للكشف عن البيرة، فإن التتر كانوا قد نازلوها، فلما قدم البري إلى حلب كان بها فخر الدين الحمصي المذكور، فقال له البري: نحن في طاعة الملك الظاهر، فتمضي إلى السلطان وتسأله أن يتركني ومن في صحبتي مقيمين بهذا الطرف، ونكون تحت طاعته من غير أن يكلفني وطىء بساطه، فسار الحمصي إلى جهة مصر ليؤدي هذه الرسالة، فلما سار عن حلب تمكن البري واحتاط على ما في حلب من الخواصل، واستبد بالأمر، وجمع العرب والتركمان واستعد

لقتال عسكر مصر، ولما توجه فخر الدين الحمصي لذلك التقى في الرمل جمال الدين المحمدي الصالحي متوجهاً بمن معه من عسكر مصر لقتال البرلي وإمساكه، فأرسل الحمصي عرف الملك الظاهر بما طلبه البرلي، فأرسل الملك الظاهر ينكر على فخر الدين الحمصي المذكور ويأمره بالانضمام إلى المحمدي والمسير إلى قتال البرلي، فعاد من وقته، ثم رضي الملك الظاهر عن علم الدين سنجر الحلبي وجهزه وراء المحمدي في جمع من العسكر، ثم أردفه بعز الدين الدمياطي في جمع آخر، وسار الجميع إلى جهة البرلي، وساروا إلى حلب وطردوه عنها، وانقضت السنة والأمر على ذلك.

ذكر مقتل الملك الناصر يوسف

وفي هذه السنة ورد الخبر بمقتل الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غازي ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعقد عزاءه بجامع دمشق في سابع جمادى الأولى من هذه السنة، أعني سنة تسع وخمسين وستمائة، وصورة الحال في قتله أنه لما وصل إلى هولاءكو على ما قدمنا ذكره، وعده برده إلى ملكه، وأقام عند هولاءكو مدة، فلما بلغ هولاءكو كسرة عسكره بعين جالوت وقتل كتبغا، ثم كسرة عسكره على حمص ثانياً غضب من ذلك، وأحضر الملك الناصر المذكور وأخاه الملك الظاهر غازي وقال له أنت قلت إن عسكر الشام في طاعتك فغدرت بي وقتلت المغل، فقال الملك الناصر: لو كنت بالشام ماضرب أحد في وجه عسكرك بالسيف، ومن يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام فاستوفى هولاءكو لعنة الله نامجاه وضربه بها، فقال الملك الناصر: ياخوند الصنيعة، فنهاه أخوه الظاهر، وقال: قد حضرت، ثم رماه بفردة ثانية فقتله، ثم أمر بضرب رقاب

الباقين فقتلوا الظاهر أخا الملك الناصر، والملك الصالح ابن صاحب حمص، والجماعة الذين كانوا معه، واستبقوا الملك العزيز ابن الملك الناصر لأنه كان صغيراً، فبقي عندهم مدة طويلة وأحسنوا إليه، ثم مات، وكان قد تولى الملك الناصر المذكور مملكة حلب بعد موت أبيه العزيز وعمره سبع سنين، وأقامت جدته ضيفة خاتون بنت الملك العادل بتدبير مملكته واستقل بالملك بعد وفاتها في سنة أربعين وستمائة وعمره ثلاث عشرة سنة، وزاد ملكه على ملك أبيه وجده فإنه ملك مثل حران والرها والرقّة ورأس عين وماع ذلك من البلاد، وملك حمص، وبعلبك، والأغوار والسواحل إلى غزة، وعظم شأنه وكسر عساكر مصر، وخطب له بمصر وبقلعة الجبل على الوجه الذي تقدم ذكره، وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته وقتل مدبر دولته شمس الدين لؤلؤ الأرمني ومخامرة ممالك أبيه العزيزية، وكان يذبح في مطبخه كل يوم أربعمئة رأس غنم، وكانت سماطاته وتجمله في الغاية القصوى، وكان حليماً وتجاوز به الحلم إلى حد أضر بالمملكة، فإنه لما أمنت قطاع الطريق في أيام مملكته من القتل والقطع تجاوزوا الحد في الفساد بالمملكة، وانقطعت الطرق في أيامه، وبقي لا يقدر المسافر على السفر من دمشق إلى حماة وغيرها إلا برفقة من العسكرة، وكثر طمع العرب والتركمان في أيامه، وكثرت الحرامية، وكانوا يكبسون الدور، ومع ذلك إذا حضر القاتل إلى بين يدي الملك الناصر المذكور يقول الحي خير من الميت ويطلقه، فأدى ذلك إلى انقطاع الطرقات، وانتشار الحرامية والمفسدين، وكان على ذهن الناصر المذكور شيء كثير من الأدب والشعر، ويروى له أشعار كثيرة منها:

فوالله لو قطعت قلبي تأسفا

وجرعتني كاسات دمعي دماصرفا

لما زادني إلا هـوى ومحبوبة

ولا اتخذت روحي سواك لها لفسا

وبنى بدمشق مدرسة قريب الجامع تعرف بالناصرية، ووقف عليها وقفا جليلاً، وبني بالصالحية تربة غرم عليها جملاً مستكثرة، فدفن فيها كرمون وهو بعض أمراء التتر، وكانت منية الملك الناصر ببلاد العجم، وكان مولد الناصر المذكور في سنة سبع وعشرين وستائة، فيكون عمره اثنتين وثلاثين سنة تقريباً.

ذكر مبايعة شخص بالخلافة وإثبات نسبه

وفي هذه السنة في رجب قدم إلى مصر جماعة من العرب، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد، زعموا أنه ابن الامام الظاهر بالله محمد ابن الامام الناصر، وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر، فعقد الملك الظاهر ببيرس مجلساً حضر فيه جماعة من الأكابر منهم الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، والقاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعز، فشهد أولئك العرب ان هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد ابن الامام الناصر، فيكون عم المستعصم، وأقام القاضي جماعة من الشهود واجتمعوا بأولئك العرب وسمعوا شهاداتهم، ثم شهدوا بالنسب بحكم الاستفاضة، فأثبت القاضي تاج الدين نسب أحمد المذكور، ولقب المستنصر بالله أبا القاسم أحمد بن الظاهر بالله محمد، وبايعه الملك الظاهر والناس بالخلافة، واهتم الملك الظاهر بأمره وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة، واستخدم عسكرياً وغرم على تجهيزه جملاً طائلة، قيل إن قدر ماغرمه عليه ألف ألف دينار، وكانت العامة تلقب الخليفة المذكور بالزراييني، وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود المذكور في رمضان من هذه السنة وتوجها إلى دمشق وكان في كل منزلة يمضي الملك الظاهر إلى دهليزه الخاص به، ولما وصلا إلى دمشق نزل الملك الظاهر بالقلعة، ونزل الخليفة في جبل الصالحية، ونزل حول الخليفة أمراؤه وأجناده، ثم جهز الخليفة بعسكره إلى جهة بغداد طمعا في أنه يستولي على بغداد، ويجمع عليه الناس،

فسار الخليفة الأسود بعسكره من دمشق وركب الملك الظاهر وودعه ووصاه بالتأني في الأمور، ثم عاد الملك الظاهر إلى دمشق من توديع الخليفة، ثم سار إلى الديار المصرية، ودخلها في سابع عشر ذي الحجة من هذه السنة، ووصلت إليه كتب الخليفة بالديار المصرية أنه قد استولى على عانة والحديثة، وولى عليهما، وأن كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على الوصول إليهم، ثم قبل أن يصل إلى بغداد وصلت إليه التتر، وقتلوا الخليفة المذكور، وقتلوا أصحابه، ونهبوا ما كان معه، وجاءت الاخبار بذلك.

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة لما سار الملك الظاهر إلى الشام أمر القاضي شمس الدين ابن خلكان، فسافر في صحبته من مصر إلى الشام، فعزل عن قضاء دمشق نجم الدين بن صدر الدين ابن سناء الدولة، وكان قطز قد عزل المحيي بن الزكي الذي ولاه هولاء القضاء، وولى ابن سناء الدولة، فعزله الملك الظاهر في هذه السنة، وولى القضاء شمس الدين ابن خلكان.

وفيها قدم أولاد صاحب الموصل وهم: الملك الصالح اسماعيل، ثم أخوه الملك المجاهد اسحق، صاحب جزيرة ابن عمر، ثم أخوهما الملك المظفر علي صاحب سنجار أولاد لؤلؤ فأحسن الملك الظاهر إليهم وأعطاهم الإقطاعات الجلييلة بالديار المصرية، واستمروا في أرغد عيش في طول مدة الملك الظاهر.

وفيها في ربيع الآخر وردت الاخبار من ناحية عكا أن سبع جزائر في

البحر خسف بها وبأهلها، وبقي أهل عكا لابسين السواد وهم يكونون ويستغفرون من الذنوب بزعمهم.

وفيها جهز الملك الظاهر بيبرس بدر الدين الأيدمري، فتسلم الشوبك في سلخ ذي الحجة من هذه السنة أعني سنة تسع وخمسين وستائة، وأخذها من الملك المغيث صاحب الكرك.

ثم دخلت سنة ستين وستائة

في هذه السنة في نصف رجب وردت جماعة من ممالك الخليفة المستعصم البغاددة، وكانوا قد تأخروا في العراق بعد استيلاء التتر على بغداد وقتل الخليفة، وكان مقدمهم يقال له شمس الدين سلا، فأحسن الملك الظاهر بيبرس ملتقاهم وعين لهم الاقطاعات بالديار المصرية.

وفيها في رجب أيضا وصل إلى خدمة الملك الظاهر بيبرس بالديار المصرية عماد الدين بن مظفر الدين صاحب صهيون، رسولا من أخيه سيف الدين صاحب صهيون، وصحبته هدية جليلة، فقبلها الملك الظاهر وأحسن إليه.

وفيها جهز الملك الظاهر عسكريا إلى حلب، وكان مقدمهم شمس الدين سنقر الرومي، فأمنت بلاد حلب، وعادت إلى الصلاح، ثم تقدم الملك الظاهر بيبرس إلى سنقر الرومي وإلى صاحب حماة الملك المنصور، وإلى صاحب حمص الملك الأشرف موسى أن يسيروا إلى أنطاكية وبلادها للإغارة عليها، فساروا إليها ونهبوا بلادها وضايقوها، ثم عادوا فتوجهت العساكر المصرية صحبة سنقر الرومي إلى مصر، ووصلوا إليها في تاسع عشرين رمضان من هذه السنة ومعهم ماينوف على ثلاثائة أسير، فقابلهم الملك الظاهر بالاحسان والانعام.

وفيهما لماضاقت على أقوش البرلي البلاد، وأخذت منه حلب، ولم يبق بيده غير البيرة دخل في طاعة الملك الظاهر؛ وسار إليه فكتب الملك الظاهر إلى النواب بالاحسان إليه وترتيب الاقامات له في الطرقات حتى وصل إلى الديار المصرية في ثاني ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة ستين، فتلقاه الملك الظاهر وبالغ في الاحسان إليه وأكثر له العطاء، فسأل أقوش البرلي من الملك الظاهر أن يقبل منه البيرة فلم يفعل، ومازال يعاوده حتى قبلها، وبقي أقوش البرلي العزيزي المذكور مع الملك الظاهر إلى أن تغير عليه وقبضه في رجب سنة احدى وستين وستمائة، فكان آخر العهد به.

وفيهما في ذي القعدة قبض الملك الظاهر على نائبه بدمشق، وهو علاء الدين طبرس الوزيري، وكان قد تولى دمشق بعد مسير علاء الدين ايدكين البندقداري عنها، وسبب القبض عليه أنه بلغ الملك الظاهر عنه أمور كرهها فأرسل إليه عسكرياً مع عز الدين الدمياطي وغيره من الأمراء، فلما وصلوا إلى دمشق، خرج طبرس لتلقيهم، فقبضوا عليه وقيدوه وأرسلوه إلى مصر، فحبسه الملك الظاهر، واستمر الحاج طبرس في الحبس سنة وشهراً، وكانت مدة ولايته بدمشق سنة وشهر أيضاً، وكان طبرس المذكور ردىء السيرة في أهل دمشق، حتى نزع عنها جماعة كثيرة من ظلمه، وحكم في دمشق بعد قبض طبرس المذكور علاء الدين ايدغددي الحاج الركني، ثم استتاب الملك الظاهر على دمشق الامير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحي.

وفيهما في يوم الخميس في أواخر ذي الحجة من هذه السنة، أعني سنة ستين وستمائة، جلس الملك الظاهر مجلساً عاماً، وأحضر شخصاً كان قد قدم إلى الديار المصرية في سنة تسع وخمسين وستمائة من نسل بني العباس يسمى أحمد، بعد أن ثبت نسبه وبايعه بالخلافة، ولقب أحمد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، وقد اختلف في نسبه فالذي هو

مشهور بمصر عند نسابه مصر انه أحمد بن حسن بن أبي بكر ابن الامير أبي على القبي ابن الامير حسن بن الراشد بن المسترشد بن المستظهر، وقد مر نسب المستظهر مع جملة خلفاء بني العباس، وأما عند الشرفاء العباسيين السلمايين في درج نسبهم الثابت فقالوا: هو أحمد بن أبي بكر على بن أبي بكر أحمد ابن الامام المسترشد الفضل ابن المستظهر، ولما أثبت الملك الظاهر نسب المذكور نزله في برج محترزا عليه، وأشرك له الدعاء في الخطبة لاغير ذلك.

وفيها جهز الملك المنصور صاحب حماة شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري رسولا إلى الملك الظاهر، ووصل شيخ الشيوخ المذكور فوجد الملك الظاهر عاتباً على صاحب حماة لاشتغاله عن مصالح المسلمين باللهو، وأنكر الملك الظاهر على الشيخ شرف الدين ذلك، ثم انصلح خاطره وحمله ماطيب به قلب صاحبه الملك المنصور، ثم عاد إلى حماة.

وفيها توفي الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، الامام في مذهب الشافعي، وله مصنفات جلية في المذهب وكانت وفاته بمصر رحمه الله تعالى. وفيها في ذي الحجة توفي الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد المعروف بابن العديم، انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة، وكان فاضلا كبير القدر، ألف تاريخ حلب، وغيره من المصنفات، وكان قد قدم إلى مصر لما جفل الناس من التتر، ثم عاد بعد خراب حلب إليها.

ثم دخلت سنة احدى وستين وستائة

ذكر مسير الملك الظاهر إلى الشام

في هذه السنة في حادي عشر ربيع الآخر سار الملك الظاهر ببيرس

من الديار المصرية إلى الشام، فلاقته والده الملك المغيث عمر صاحب الكرك بغزة، وتوثقت لابنها الملك المغيث من الملك الظاهر بالأمان، وأحسن إليها، ثم توجهت إلى الكرك وتوجه صحبتها شرف الدين أجاكي المهمندار برسم حمل الاقامات إلى الطرقات برسم الملك المغيث، ثم سار الملك الظاهر من غزة ووصل إلى الطور في ثاني عشر جمادى الأولى من هذه السنة، ووصل إليه على الطور الأشرف موسى صاحب حمص في نصف الشهر المذكور، فأحسن إليه الملك الظاهر وأكرمه.

ذكر حضور الملك المغيث صاحب الكرك وقتله

واستيلاء الملك الظاهر بيبرس على الكرك

وفي هذه السنة كان مقتل الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب الكرك، وسببه أنه كان في قلب الملك الظاهر بيبرس منه غيظ عظيم، لأمر كانت بينهما قيل إن المغيث المذكور أكره امرأة الملك الظاهر بيبرس لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم إلى الناصر يوسف صاحب دمشق، وهرب الملك الظاهر بيبرس المذكور، وبقيت امرأته في الكرك، والله أعلم بحقيقة ذلك، وكان من حديث مقتله أن الملك الظاهر بيبرس مازال يجتهد على حضور المغيث المذكور وحلف لوالدته على غزة كما تقدم ذكره، وكان عند المغيث شخص يسمى الأجد وكان يبعثه في الرسالة إلى الملك الظاهر، فكان يبالي في اكرامه وتقريبه، فاغتر الأجد بذلك، ومازال على مخدومه الملك المغيث حتى أحضره إلى الملك الظاهر، حكى لي شرف الدين بن مزهر، وكان ابن مزهر المذكور ناظر

الملك الظاهر بيبرس الملك المغيث المذكور وقبض عليه، أحضر الفقهاء والقضاة وأوقفهم على مكاتبات من التتر إلى الملك المغيث أجوبة عما كتب إليهم به في اطماعهم في ملك مصر والشام، وكتب بذلك مشروح، وأثبت على الحكام، وكان للملك المغيث المذكور ولد يقال له الملك العزيز، أعطاه الملك الظاهر اقطاعاً بديار مصر، وأحسن إليه، ثم جهز الملك الظاهر بدر الدين البيسري الشمسي، وعز الدين استاذ الدار إلى الكرك، فتسلماها في يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، أعني سنة إحدى وستين وستائة، ثم سار الملك الظاهر ووصل إلى الكرك ورتب أمورها، ثم عاد إلى الديار المصرية، فوصل إليها في سابع عشر رجب من هذه السنة.

ذكر الاغارة على عكا وغيرها

وفي هذه السنة لما كان الملك الظاهر نازلاً على الطور، أرسل عسكرياً هدموا كنيسة الناصرة، وهي من أكبر مواطن عبادات النصارى، لأن منها خرج دين النصرانية، وأغاروا على عكا وبلادها فغنموا وعادوا، ثم ركب الملك الظاهر بنفسه وجماعة اختارهم، وأغار ثانياً على عكا وبلادها، وهدم برجاً كان خارج البلد، وذلك عقيب إغارة عسكريه وهدم كنيسة الناصرة.

ذكر القبض على من يذكر

وفيها بعد وصول الملك الظاهر بيبرس إلى مصر، واستقراره في ملكه في رجب قبض على الرشيدى، ثم قبض في ثاني يوم على الدمياطي، والبرلي، وقد تقدمت أخبار البرلي المذكور.